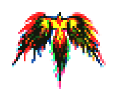
القُبيسيّات .. شبُّوحات مافيا الأسد الإسلاميّات



المُجرم بشار الأسد ووزير أوقاف التشبيح الديني في الوسط؛ على الطرفين، شبُّوحات (جَمْعْ شَبُّوحة .. أُنثى شَبِّيح) إسلاميّات قُبيسيّات



إعداد: فينيق ترجمة

https://ateismoespanarab.blogspot.com

14.08.2021

يوجد كثير من الأدلة التاريخية والراهنة الدافعة لاعتبار "الحركات الدينية" أحصنة طروادة أو جماعات مفعول بها، حتى عندما تأخذ دور "فاعل مؤقت ما"؛ لن تشذّ "القُبيسيّات" (ولا الإخوان المسلمين ولا هيئة تحرير الشام ولا تنظيم القاعدة ولا داعش ولا الحركات المسيحية المتطرفة ولا الحركة الصهيونية ولا غيرهم) عن هذا الأمر، بل هذا ما سيُثبِتُهُ أغلب ما سيرد من معلومات.

لقد ساهمت القبيسيات بنشر الحجاب بين الفتيات في سورية عموماً، وفي دمشق على وجه الخصوص:

وإن يكن الحجاب مظهر تديُّن فلا يُشكِّل دليل أخلاقيّ قيميّ كحال التنُّورة التي لا تُشكِّل دليل على قلّة أخلاق وانعدام قيم لابستها.

ففي خمسينيات القرن المُنصرم، حين كانت مؤسسة القبيسيات "منيرة القبيسي" تدرس في إحدى مدارس دمشق: كانت المُحجَّبة الوحيدة في الصفّ!

ومن يشاهد صور لاحتفالات عامة في العاصمة دمشق خلال خمسينيات القرن الماضي: سيرى القسم الأعظم من الصبايا والنساء (المسلمات في غالبيتهن العُظمى) دون حجاب ..

بمعنى أن ما حدث مع وصول حزب البعث وتعامله "السخيف السطحي" مع الحجاب والدين بالعموم، ليبلغ ذروته مع عصابات رفعت الأسد وعمليات نزع الحجاب عن محجبات دمشقيات في الطرق ووسائل النقل والعمل المُخابراتي الممنهج بعهد المُجرم حافظ السد وعهد ورثته الإرهابيين:

أدى لارتفاع نسبة المحجبات الدمشقيات .. فغالبية الدمشقيات محجبات الآن! ويمكن الزعم بأنه عمل مقصود لا عفويّ!

لا حاجة للدخول بنقاش حول "فرض الحجاب" في الإسلام أو عدم فرضه .. فهو خارج إطار الموضوع.

جرى الحديث عن انشقاقات بصفوف القبيسيّات بعد اندلاع الثورة السوريّة .. لكن كل حركة أو حزب مبني على أساس ديني، سيما في مجتمع متنوِّع دينياً، هو شُغل في السياسة، ستُجيِّرها جهات ما لصالحها، لا تديُّن يُحسِّن من أخلاق وسلوك الإنسان!

فينيق ترجمة

جماعة القبيسيات.... النشأة والتكوين تمهيد

ظلت دراسة الجماعات الدينية النسائية بشكل عام وجماعة "القبيسيات" بشكل خاص موضوع الدراسة هذه بعيدة عن اهتمامات الباحثين والأكاديميين الاجتماعيين والمهتمين بالحركات الدينية حقبة من الزمن، ويعود ذلك إلى عوامل متعددة؛ إما متعلقة بالجماعة نفسها كونها اتخذت من الانكفاء على نفسها منهجاً لها، أو عوامل تعود لطبيعة الحالة السورية الخاضعة لقبضة أمنية قمعية شديدة طالت مجالات الحياة كافة حتى مجال البحث العلمي، وعوامل أخرى تتعلق بالظروف السياسية لسورية وللدول العربية والعالم والتغيرات الطارئة عليها.

إن أغلب ما كُتب عن جماعة "القبيسيات" لم يكن موضوعيا فأغلب ما كتب صدرته تيارت مناوئة فكريا ومنهجيا للقبيسيات فغلب على كتاباتها طابع تصيد العثرات والزلل ولم يكن منصفا ولا متتبعا للسيرورة التاريخية لنشأة هذه الجماعة، كما أنه لم يراعِ الحالة الاجتماعية والدينية والسياسية للمجتمع السوري، ولم يبحث في الظروف الاجتماعية المحيطة بالجماعة ولا الظروف السياسية التي عاصرتها ،فنوقشت الظاهرة القبيسية وكأنها منعزلة عن المجتمع وعن الجماعات الدينية الأخرى وأُهمل كونها_كغيرها_ متأثرة بتقاليد وأعراف متجذرة في المجتمع السوري ومرتهنة بشروطه التاريخية والاجتماعية والأمنية. فبدت وكأنها الجماعة الوحيدة التي تمارس نشاطات أو سلوكيات وُصمت بالخاطئة أو البعيدة عن جوهر الإسلام.

وغالباً ماكان النقد الموجه لجماعة القبيسيات يسقط الفروق الفردية الشخصية لقياداتها واتجاهاتها النفسية والفكرية وخلفياتها الاجتماعية والتربوية وتفاعلاتها مع فكر الجماعة، ما أدى إلى إطلاق تعميمات في الأحكام جانبت الصواب واعتمدت ما هو مسبق ونمطي منه، وطغى الكثير من الجدل والاتهامات في تقديم صورة هذه الجماعة وأفرادها.

تنطلق الاتهامات والانتقادات لنهج "القبيسيات" من إشكاليات عريضة ثلاث؛ الأولى تطال توجهها الفكري وتكوينها العقدي، باعتبار أن مؤسِسة الجماعة الآنسة "منيرة القبيسي" تتلمذت على يد الشيخ "أحمد كفتارو" المشهور باتباعه الطريقة النقشبندية، حيث أخذت القبيسي عنه الطريقة كما يُتداول، وأُتهمت الطريقة النقشبندية الصوفية هذه بأنها مغرقة بالشطحات والبدع في نظر التيارات والجماعات الإسلامية الأخرى مثل التيار السلفي أو الوهابي1 أو الطرق الصوفية الأخرى كبعض أصحاب الطريقة الرفاعية (الأحباش). الإشكالية الثانية فتتمحور بحسب البعض من كون أن جماعة القبيسيات كغيرها من الجماعات الدينية تعمل تحت ظل نظام البعث القمعي في سورية ما يشي بوجود حالة رضا وعلائق نفعية متبادلة بين الطرفين. يقول د. "طيب تيزيني" عن أن مصدر شرعية هذه الظاهرة أنها من قلب "البنية السوسيوثقافية والاقتصادية في البلد، حتى حين يتم إنتاجها بأيدي النظام السياسي الثقافي القائم"2 . أما الإشكالية الثالثة فتتمركز على اتهام الجماعة بسعيها إلى أسلمة المجتمع السوري (وفق رؤيتها الخاصة) من خلال سيطرتها على الفتيات والنساء وممارسة نشاطاتها الدعوية في المنازل بعيدا عن أماكن الدعوة المشهورة كالمساجد، حيث يصف العلمانيون الجماعة بأنها جماعة "إرهابية تكفيرية" وذلك في استنادها إلى مواقف تكفيرية من الطوائف الأخرى أو من العلمانيين3! .

إن فكرة تسليط الضوء ممن كتبوا في هذا الشأن على وجود ممارسات نسوية دينية تعليمية دعوية في المنازل والادعاء بخطر هذه الجماعة لأجل ذلك النهج كونها ستكون بعيدة عن أنظار الأمن في سورية، إنما هي نتاج تبني رؤية النظام البعثي؛ فمن المعلوم أن نظام المشيخة وعلائقها ونشاطاتها

وكيفية تلقي العلوم الشرعية وغير الشرعية متجذرة في تاريخ سورية (بلاد الشام) سواء في مجتمع الرجال أو في مجتمع النساء، وأن المجتمع السوري في طبيعته يحتضن العديد من النشاطات الدينية الدعوية، بل وتعتبر من خواص الأسر السورية المحافظة؛ فالدروس الدينية والموالد النبوية والاحتفالات الدينية الأخرى والمناسبات الاجتماعية كالزفاف وغيره كان حيزها في البيوت أو المساجد.

ثم إن الكثير من نقاد الجماعة يشكك في جدوى وجود مثل هذه الجماعة ودورها في المجتمع، فالمدارس بكل مراحلها حسب زعمهم تُقدم في مناهجها مادة التربية الدينية، ومن أراد التخصص فعليه الانتساب إلى مدارس ومعاهد شرعية 4، على اعتبار أن المادة الدينية في المدارس كافية من حيث المضمون والمحتوى، وهو غير صحيح وغير دقيق تماماً، عدا عن إغفال مسألة حاجة الأسر المحافظة لتعليم بناتها الدين والقيم الروحية دون الانتساب إلى مدارس ومعاهد شرعية متخصصة.. يعود تاريخ تأسيس جماعة "القبيسيات" إلى ستينيات القرن الماضي، على ما يبدو، وقد نهجت جماعة "القبيسيات" نهج المدارس الدينية الدمشقية الأُخرى مثل مدرسة حسن حبنكة الميداني ومن بعده مدرسة جامع زيد ومدرسة كفتارو، ونهج الشيخ فرفور وجماعته في التركيز والاستناد إلى الطبقة الاجتماعية الغنية والمتوسطة والمرتبطة مع طبقة رجال الأعمال، حيث اتسمت علاقات القوة والسلطة والنفوذ في سورية بنوع من النفعية وإيلاء مسألة تبادل المصالح على رأس العلاقات بتأثير من سياسة البعث التي عززت هذا النوع من العلاقات من جهة، ومن جهة أخرى بسبب طبيعة المجتمع الدمشقي خاصة، والذي يعتمد على حلف مقدس بين طبقة البرجوازية السنية والإسلام المعتدل ،ولذا فمن المنطقي انتقال بنية هذه العلاقات وشكلها إلى فئات المجتمع ومجالاته كافة بما فيها الجماعات الدينية كونها تمثل جزءاً من تركيبة هذا المجتمع المديني.

حرصت الجماعة في ذلك الوقت أن تكون اتجاهاً موازياً يمارس شيئا من الندية الفكرية للحركات النسوية النهضوية التحررية التي سعت لرسم صورة المرأة العربية وتحديد أدوارها في المجتمع والتي اختلطت أفكارها بالعديد من الأفكار الاشتراكية والبعثية والشيوعية، ولكنها لم تستطع أن تكون مكافئة لها سياسيا وانتشارا وبقي دورها محصورا في إطار تحصيني من الأفكار للفتيات المسلمات.

يشكك كثيرون في اعتبار جماعة القبيسات جماعة بالمعنى الحركي أو الهيكلية التراتبية ولكن القيادات التأسيسية أرادت أن تجعل من الإسلام نمطاً كاملاً للحياة، من عبادات وأخلاق وقيم وفضائل، ونشر تعاليمه بين صفوف الفتيات منذ نشأتهن، والحث على التقيد بالفروض الدينية والعبادات التي كانت من أهم الأولويات، وذلك في محاولة ربما غير مقصودة أو مخطط لها بشكل مدروس ومنهجي ، للخروج عن التنميط الديني الذي رسمه النظام السوري والذي اقتصر على الحاجة الاجتماعية والنفسية لوجود الدين بحدودها الدنيا لطبقة واسعة من السوريين، ونظراً للظروف الأمنية والملاحقات ونهج الترهيب والرعب والقمع الذي فرضه النظام على المجتمع السوري لم تستطع الجماعة التحرك إلا ضمن أُطر محددة كما رُسم لها في الغالب .

إن سياسة القمع والترهيب التي مورست لعقود في سوريا نجحت في خلق جيل واسع من الشخصيات المطيعة على كافة الصعد يحكمها الخوف والرهاب من كل ما قد يمس الحكومة والسياسة، ما انعكس على نمطية المواد العلمية والمنهجية التي تُقدم في الحلقات التدريسية للجماعة؛ فكثيراً ما كانت تلك القضايا والأفكار المتداولة فيما بينهم لا تخرج أن تكون مواد نظرية مطوية في كتب ومؤلفات تعود إليها الطالبات لمجرد العلم بالشيء دون محاولة لملامسة الواقع أو التقريب بين النظري والتطبيقي؛ كالقضايا السياسية وقيم العدل والكرامة والحرية... وغيرها من القضايا المنتشرة في قصص الأنبياء وسيرة النبي محمد صلى الله عليه وسلم وصحابته والتي

تدرسها الفتيات بشكل واسع، مع ذلك فقد ظلت مثل هذه القضايا حبيسة الكتب والمجال النظري ومُنع على الطالبات حتى الاستفسار أو فتح باب النقاش أو الخوض بعمق فيها، بل وعوقبت كل من تجرأت وفتحت هذا النوع من النقاشات أو كل من اعترضت على كتب معينة بأسلوب القطيعة الكلامية أو التأنيب بين حين وآخر. هذه المنهجية كانت السبب في ترك الكثيرات الجماعة كما حدث مع النساء اللاتي أجرينا معهن المقابلات في دراستنا هذه.

مع وصول الأسد الابن الحكم وما رافق ذلك من انفتاح نسبي سياسيا وإعلاميا ومع شيوع ثقافة الانفتاح الحذر طرأت بعض التغيرات على استراتيجية الدولة تجاه مظاهر التدين الشعبي في سورية، فلوحظ تقارب حذر للنظام من الرموز الدينية التقليدية، كما فعّل نشاطات معاهد تحفيظ القرآن، وسمح بافتتاح معاهد شرعية للذكور والإناث بشكل موسع مع الاحتفاظ بسياسة التحكم وبسط نفوذ الأجهزة المخابراتية على نشاطات المدارس الدينية المختلفة في سورية. وكان لجماعة القبيسيات نصيبها من تلك الانفراجة فقد فتح لها النظام المجال العام وقدم لها مساحة من حرية التحرك وممارسة النشاطات الدينية والاجتماعية والدعوية، متكئا بذلك على علاقة جيدة مع أبرز المشايخ وعلماء الدين المشرفين عليها.

منهجية الدراسة

ينحصر النطاق الزمني للدراسة في رصد ظاهرة الجماعة الدينية النسائية من خلال أبرز صورها والمتمثلة في جماعة القبيسيات منذ نشأتها إلى بداية الثورة السورية في آذار 2011، وتعتمد المنهج الوصفي التحليلي لدراسة الظاهرة. ولن تدخل الدراسة في مسائل تقييم فكر الجماعة عقدياً، فهذا يحتاج إلى اطلاع واسع على عقيدتها من خلال الكتب المتداولة فيما بينها، وعلى أصول العلوم الشرعية التي تُدرس في حلقاتها، علاوة على أنه لا بد وأن يكون هناك حد أدنى من معاصرة الجماعة ليصار إلى نقدها نقداً علمياً وهذا يحتاج إلى مختصين بتلك العلوم الشرعية. وسنكتفي هنا بالإشارة إلى من نقدها من التيارات الإسلامية دون الوقوف على ذلك مطولاً لعدم مناسبة مقامنا لذلك.

اعتمدنا في دراستنا هذه على بعض اللقاءات الشخصية مع فتيات وسيدات كنّ ناشطات في الجماعة وتركنها لأسباب مختلفة، وقد لا تتنكر "القبيسية" السابقة للجماعة في شهادتها بشكل كامل، فتعرج على الإيجابيات تارة والسلبيات تارة أخرى ، بينما ترفض إحداهن الجماعة رفضاً كاملا، كما أننا لم نركز كثيراً على شهادات منشقات أو تابعات للجماعة مجهولات الهوية نُشرت شهادتهن على مواقع الشبكة العنكبوتية. وكنا نأمل مع محاولتنا الحثيثة لو وافقت إحدى القبيسيات اللاتي لازلن في الجماعة للإدلاء بشهادتها، إلا أننا لم نتلق إلا الصدود والتمنع والالتزام بالصمت مما انعكس صعوبة على دراستنا.

الدراسات والأبحاث السابقة:

لم تُتناول ظاهرة القبيسيات تناولاً علمياً دقيقاً كدراسة جادة، وأبرز ما وصل إلى أيدينا من دراسات وأبحاث عن جماعة القبيسيات هي كتاب لممثل جماعة الأحباش الدكتور أسامة السيد بعنوان "دراسة شاملة عن التنظيم النسائي الخطير" (2003) وهي دراسة غلبت عليها نبرة حزبية ندية في سياق التنافس الدعوي على سيدات المجتمع اللبناني ولذا فقد خلت من النبرة العلمية الدقيقة، و"موسوعة الرد على المذاهب الفكرية المعاصرة" لعلي بن نايف الشحود حيث خُصص الباب 23 للرد على القبيسيات، ولوحظ فيها افتقار الباب إلى تأصيل علمي شرعي، أو إسناد دقيق وتحقيق، فقد نسب إلى الجماعة القول بالحلول ونظرية "وحدة الوجود" الصوفية دون أن يأتي بأي دليل نقلي

لإثبات ما ذهب إليه، ويكتفي بالنقل والاقتباسات عن بعض من نقلوا ما جاء في كتاب "مزامير داوود" المنسوب للجماعة، والذي تتقاطع فيه بعض الأفكار مع كتاب "المتاح من الموالد والأناشيد الملاح" لنوال أبو الفتوح المتداول بينها.

وهناك كتاب بعنوان "تقرير عن جمعية بيادر السلام النسائية، الكويت" وهو من إعداد لجنة من الباحثين، إضافة إلى كتابات أخرى قليلة بعضها كُتب على عجالة، والبعض الآخر غير دقيق علمياً وأقرب ما يكون إلى تقارير صحفية أو مقالات رأي موجودة على الشبكة العنكبوتية والتي سنقتبس من بعضها هنا.

المبحث الأول ماهية الجماعة تنظيم أم حركة نسوية أم جماعة دينية اجتماعية؟

يحار الباحث حول الإطار التصنيفي لجماعة القبيسيات، بين كونها جماعة بالمعنى التنظيمي، أم حركة دينية نسوية، أم تنظيم مهيكل سريا، أم مجرد نشاط اجتماعي ديني يحمل بعدا إصلاحيا... ولماذا أُصطلح على تسمية الأخوات بـ "القبيسيات" أو أُطلقت على دعوتهن بالدعوة القبيسية؟ من المعلوم أن الجماعة لم تطلق على نفسها اسم "القبيسيات"، إنما تعود هذه التسمية إلى الداعية "منيرة القبيسي" مؤسسة الجماعة وشيختها الكبيرة، وبات من الملاحظ أن هناك تشويش والتباس في تصنيف هذه الجماعة، فبعضها عدّها حركة باطنية سرية تنشط باسم الإسلام، والبعض الآخر خلع عليها صفة السياسة بغطاء ديني، بينما صنفها بعض المفكرين الإسلاميين بأنها جماعة دينية إصلاحية إحيائية...

وهناك من شطح بعيداً وألبسها لبوس الحركة النسوية الإسلامية لمجرد أنها مكونة من مجموعة من النساء8 ، ومن المعلوم أن مصطلح "نسوية" لا يُطلق على جماعة لمجرد أنها مكونة من نساء، فإذا كان تعريف النسوية هو "حركة ثورية ذات مضمون فكري يسعى لهدم الصور النمطية عن المرأة ويحمل لواء الدفاع عن حقوق المرأة ومساواتها بالرجل ليخلصها من الحالة المتردية والتبعية الاجتماعية والفكرية للرجل وهيمنته عليها"؛ فإن الحركات النسوية قامت على الوقوف ضد الخطاب الذكوري والمطالبة بتفسير النصوص الدينية والتراثية تفسيراً أنثوياً/ نسوياً، والتي تخرج عنها في بعض الأحيان منشورات (كتب ومقالات) تحاول فيها النسويات تفسير التراث أو النصوص المقدسة تفسيراً نسوياً، على اعتبار أن رجال الدين احتكروا تفسيرها ما أدى إلى غياب حضور المرأة في المجتمع وحرمانها من حقوقها. وبهذا المعنى فإننا لا نستطيع أن نطلق على حركة "القبيسيات" بالحركة النسوية أو بالتيار النسوي. عدا عن أن جماعة القبيسيات ذكورية إن صح التعبير في نشأتها وبنيتها ونشاطها ومرجعيتها... لم تخرج عمّا يقدمه الخطاب الديني الرسمي"الذكوري". والواقع أنه لا يوجد في سورية حركات نسوية بالمعنى السابق لا جماعة ولا فرادى، إنما يمكن القول إن ماهية الجماعة تعود إلى طبيعة المجتمع العربي الإسلامي الذي كان نظام التعليم فيه خاصاً ظل متوارثاً وفاعلاً عبر العصور رغم وجود المدارس والمعاهد والجامعات، فوجود مدرسات وفقيهات وعالمات دين يدرسنّ الفتيات والفتيان في المنازل مقبولاً في مجتمعنا إلى يومنا هذا.

وغالباً ما يتم نفي مصطلح "التنظيم" عن الجماعة لعدم وضوح هيكلية تنظيمية وآليات تصعيد الكوادر فيهاولم يعرف لها آليات إدارة الموارد الكبرى التي تردها ولم يشتهر ارتباطها بأية أغراض أو أجندات سياسية على اعتبار أن المصطلح يشير إلى حركات الإسلام السياسي أو الحركات الجهادية كتنظيم الإخوان المسلمين أو تنظيم القاعدة وبهذا فهي تفترق عن الجناح النسائي للحركات الإسلامية بالمعنى العام(مع ملاحظة أنه غدا للجماعة ارتباطات ومواقف سياسية حيال الثورة السورية ليست محل بحثنا)... وبهذا الصدد يقول د. حبش (أحد علماء الدين المدافعين عن

الجماعة) بأن القبيسيات لا علاقة لهن بالسياسة أو بجهات سياسية معينة أو بالجماعات التكفيرية، وأنهن "منظمات ولكنهن لسن تنظيماً، وحتى لو كنّ تنظيماً فإن هذا ليس خطأ أو شيئا محرما، بل هو شيء يحث عليه الدين"9 .

بقي أن نشير إلى أنه من الممكن أن تندرج الجماعة ضمن الحركات الاجتماعية؛ فإذا كانت الحركة الاجتماعية تتشكل حول مبادئ ومصالح معينة مادية وأخلاقية وروحية بهدف الدفاع عنها، أو للسعي من أجل تحقيقها، فإنه يمكن أن نطلق على القبيسيات بأنها حركة اجتماعية إصلاحية، مضافاً إليها أنها حركة دينية لأن همها الأول التعليم الديني ونشر الأخلاق الإسلامية في المجتمع بين فئات النساء كافة.

المبحث الثاني النشأة والظروف التاريخية المحيطة

في ذروة انتشار أفكار قاسم أمين ورفاعة طهطاوي رائدي تحرير المرأة العربية ،وفي أوج ظهور ثقافات هجينة عن المجتمع السوري كالشيوعية والليبرالية نشأت الشابة منيرة القبيسي في بيئة مستقرة اقتصاديا محافظة دينيا بنبرة إنفتاحية منحتها الجرأة لإرسال ابنتها للتعليم بالمدرسة في وقت كان المتدينون يضيقون ذرعا بالمدارس الرسمية ذات النفس الليبرالي وقلما يجدون مبررا لتعليم البنات أصلا في ظل الثقافة الشرقية المهيمنة وقتها،كانت منيرة محل اهتمام رفيقاتها نظرا لدماثة طبعها ولكنها كانت محل شفقتهم واستغرابهم كونها كانت المحجبة الوحيدة بمدرستها حينها. بدأت "منيرة القبيسي" (مواليد دمشق عام 1933) في ستينيات القرن الماضي نشاطها الدعوي والديني في دمشق، وذلك خلال تدريسها مادة العلوم الطبيعية في مدارس دمشق، ومع إحساسها بدورها الدعوي الاجتماعي بشكل أكبر دخلت كلية الشريعة بدمشق بالتزامن مع قربها من حلقات الشيخ "أحمد كفتارو" حيث تربت على يديه ونهلت منه العلوم الدينية 10. ثم انفصلت "القبيسي" عن جماعة الشيخ كفتارو بسبب بعض المضايقات التي واجهتها كما يقول د. حبش و"كما هي عادة كثير من الجماعات الدينية في ممارسة الوصاية على أفرادها فقد قاموا بمنابذة هذه السيدة الناجحة العداء، وبالفعل تعرضت لسلسلة من المضايقات اختارت بعدها الاستقلال عن جماعة الشيخ كفتارو دون أن تقطع صلتها بالشيخ نفسه الذي كان في الحقيقة أستاذاً لوالدها وعمها السيد أبو الخير القبيسي الذي يعتبر أحد أبرز تلاميذ الشيخ كفتارو 11".

وقيل إن السبب الرئيس لانفصال الآنسة منيرة عن جماعة كفتارو هو بروز دور ابنة الشيخ أحمد كفتارو "وفاء" في جامع أبي النور كداعية إسلامية، وظهور "منافسة حادة" بينهما دفع بالآنسة إلى الابتعاد وتأسيس "منهجها واتباعها في شكل مستقل مادياً وفكرياً"، إلا أن ابن الشيخ أحمد نفى وجود هذه المنافسة بسبب أن الآنسة وفاء كانت تلميذة القبيسي وتصغرها بحوالي عشرين سنة 12. بدأت تحركات الجماعة المحدودة تنشط في فترة تاريخية حرجة بالنسبة للمجتمع السوري المتدين في أغلبه، حيث طغى الفكر العلماني والليبرالي وقيم الشيوعية على سورية بشكل عام، عايشت منيرة هذه الفترة بقسوتها محاولة تخفيف آثارها الثقافية على بنات عصرها، وساعية في تحصين المقربات منها من ذاك الفكر.

لقد كان التدين حينها بالنسبة لغالبية الشعب السوري حاجة فطرية طبيعية، تبرز مظاهره إلى العلن تارة وتفتر تارة أخرى، كونه يحقق أولاً قيمة الانتماء وتحقيق الذات في ظل مجتمع لم يراع هذه الحاجة لا على الصعيد الاجتماعي ولا على غيره من الصعد حيث تفشى فيه أخلاق الفردية والأنانية والاغتراب الثقافي وبرزت فيه أشكال الانفتاح.

وعليه، ومع تنامي نشاط الجماعة اجتماعياً ودينياً، استطاعت جذب الكثير من الدمشقيات كون أغلب القيادات النسائية الأولى فيها كانت من العائلات الدمشقية المعروفة، وتدريجيا أخذت تشكل حلقاتها الدينية الدعوية الخاصة المتسمة بالاعتدال تارة وبالتشدد تارة أخرى، وحملت على عاتقها مسؤولية توعية النساء اجتماعياً ودينياً في بيئة اقتصر الوعي الديني والتعليم الشرعي فيها على المدارس والمعاهد الشرعية التابعة للمؤسسات الدينية الرسمية مثل معهد بدر الذي أُسس عام 1964 الخاص بتعليم الإناث والتابع لمجمع الشيخ كفتارو. ثم في العام الذي يليه عام 1965افتتح معهد الفتح (الذي أسسه الشيخ محمد صالح فرفور) فرعاً للإناث لتعليمهن العلوم الشرعية وإعدادهن للدعوة والتي عُدت المبادرة الأولى للنهوض بالفتيات دينياً وتربوياً في دمشق.

في سبعينيات القرن المنصرم ومع تصاعد صوت الحركية الإسلامية على يد الاخوان المسلمين ومع إيلائهم قضية الدعوة النسوية حقها برزت حالة انتعاش لتيار القبيسيات ضمن بنات الإخوان المسلمين لكن الخلفية الفكرية المتأثرة بالسلفية لإخوان دمشق ممثلة بالأستاذ عصام العطار حالت دون الانفتاح الكامل على جماعة القبيسيات فكان دورهم تنسيقيا دعويا بالمعنى العام.
في ثمانينيات القرن الماضي خبرت النساء السوريات أحداثاً جسام طالت حياة أزواجهن وآبائهن وإخوانهن من حملات إبادة واعتقال لحركة الإخوان المسلمين آنذاك، ولكل من كانت له علاقة بها من قريب أو بعيد. ومع ذلك لم تقف النساء المحافظات مكتوفات الأيدي في ظل ظروف أمنية قاسية آنذاك، ويسجل للقبيسيات حينها أنهن استطعن وبسبب طبيعة حياتهن المنعزلة عن المجال العام أن يكن الحامل والحافظ للتعاليم الدينية وباتوا الموجه الأخلاقي شبه الوحيد للنساء بتلك الفترة، وأسهمن بشكل ما في إعادة المجتمع السوري لطبيعته المحافظة الملتزمة بالدين ونشر القيم الإسلامية والتأكيد على الالتزام بالعبادات وحفظ القرآن ودراسة الفقه والسيرة النبوية.

بالتزامن مع جماعة القبيسيات وُجدت نشاطات نسائية دينية أخرى أبرزها كانت تعود لجماعة الشيخ أحمد كفتارو والتي عُرفت بـ"الكفتاريات" والتي ترأستها وفاء كفتارو ابنة الشيخ أحمد، حيث تلقت تدريباً "على مسار المشيخة والقيادة على يد والدها ومشايخ وشيخات آخرين، وهي تترأس معظم الفرع النسائي من الطريقة الكفتارية، كما كانت مشرفة على المدارس والجامعات التابعة لمجْمع أبو النور الإسلامي لفترة طويلة. كما كانت الزوجة الثانية للشيخ كفتارو، صباح الجبري والتي تزوجها الشيخ بعد وفاة زوجته الأولى عام ١٩٩٢ تكتسب تأثيراً كبيراً ضمن النشاط النسائي. كما تم تعيين كل من ابنته وزوجته كمعلمات رسميات في المساجد عن طريق وزارة الأوقاف الإسلامية، وذلك بالرغم من كون المناصب الثابتة محدودة جداً وغير متاحة عادةً للنساء"13 .

وبالإضافة إلى المعاهد الشرعية الرسمية وحلقات الدروس الدينية في المنازل سواء التابعة لجماعة القبيسيات أو غيرها، نشأت حركات تجديدية تنويرية كما تطلق على نفسها نشطت فيها الفتيات ولو بنسبة أقل بالمقارنة مع الذكور، كحركة فكر جودت سعيد التي شاع صيتها في دمشق خاصة ومدينة داريا بشكل أدق، أواسط التسعينيات من القرن الماضي. دعت هذه الحركة إلى التغيير التدريجي والسلمي من خلال أنشطة مدنية وتعلم الدين وتعاليمه ضمن منهجية اللاعنف ونشر السلام والمحبة ومحاربة الفساد، وكان الشيخ عبد الأكرم السقا (إمام وخطيب مسجد أنس بن مالك في داريا) من أبرز أنصار هذه الحركة والذي ألف كتباً فقهية عدة، ودرس فيه الفقه والقرآن والتجويد (ضمن حلقات معاهد الأسد لتحفيظ القرآن الكريم). ومن النساء برزت حنان اللحام كداعية دينية وناشطة في نشر فلسفة اللاعنف حيث فتحت بيتها لاستقبال المريدات والمريدين من أنصار التغيير السلمي.

في نهاية عام 2000 عممت وزارة التربية والتعليم في سورية على المدارس الابتدائية والإعدادية والثانوية السماح للطالبات بارتداء الحجاب خلال الدوام المدرسي وفي الفصول الدراسية، بعد أن

كان ممنوعاً على الطالبات الاحتفاظ به داخل المدارس، بموجب قرار عام 1983 وبالتزامن مع الحملة الإجبارية في 29 سبتمبر/ أيلول 1981التي قام بها رفعت الأسد (أخ حافظ الأسد) بواسطة مظليات رفعت الأسد وسرايا دفاعه أُجبرت من خلالها البنات والنساء على خلع الحجابات في شوارع دمشق ومدارسها، وبسبب الموقف الشعبي الضاغط الرافض لهذه الحملة خرج حافظ الأسد معتذراً أو هكذا خُيل للشعب وقتذاك قائلاً: "هؤلاء أمهاتنا وأخواتنا وبناتنا، نحن نحترمهن... بعض بناتنا المتحمسات لا يرضيهن ما يحدث للمرأة من تهميش وانغلاق... يجب أن تقوم المنظمات الشعبية وبخاصة الاتحاد النسائي بدورها في تربية جيل متحرر"14 .

شكلت مسألة الحجاب قضية مركزية لدى القبيسيات ولدى غيرهن من النساء المحافظات، فالنظام السوري استخدم الحجاب استخداماً وظيفياً ما بين نزعه وبين السماح به على مضض ما أثر لاحقاً كثيراً على الأسر السورية المحافظة ودفع بالكثير منها إلى إجبار الفتيات على ترك المدرسة بسبب منع الحجاب، بينما اعتمد البعض الآخر على فتاوى تُولي التعليم أهمية كبيرة. هذه الحالة المقلقة دفعت بالقبيسيات إلى تحدي مبطن للنظام من خلال إنشاء البديل عن المدارس لتلقين الفتيات مبادئ دينهن وتعليمهن تعليماً شرعياً، والحث على التمسك بالحجاب في الأماكن العامة. ثم إن سياسة منع المحجبات من الظهور في المجال العام في موقع قيادي ما في المجال السياسي أو الحكومي أو الإعلامي على سبيل المثال، وفرض شرط نزع الحجاب إن أرادت إحداهن الوصول إلى تلك المراكز، خلقت حالة من تهميش المحجبات وجعلتهن في أطر ومجالات محددة وقامت بعزلهن في جماعات خاصة بهن منغلقات على الجماعات الأخرى، وعلى أفراد المجتمع الآخر المخالف.

المبحث الثالث الانتشار ... وقياديات الجماعة وآنساتها

تعتبر دمشق هي الحاضن والمنشأ الفعلي لمجموعة الأخوات وفيها استقرت صورتها النهائية ورؤيتها الفكرية ومنها استمدت المرجعيات، ولازالت الوفود النسوية تحج لرؤية الآنسة الكبيرة بدمشق ،كما عمل وجود الجامعة الكبرى بسوريا في العاصمة على توسع الاحتكاك بين الدمشقيات والطالبات من محافظات أخرى اللواتي شكلن رسلا مباشرين للدعوة ومرتكزات صارت فيما بعد أعمدة الجماعة في مناطقها وتجمعاتها، وتعتبر كلية الصيدلة في جامعة دمشق أحد أهم معاقل القبيسيات التي تخرجت منها شخصيات قيادية نسوية ذات مستوى تعليمي عالي في محافظاتها استطعن نقل الأفكار وتطبيق التجربة ذاتها.

تأتي مدينة حمص بعد دمشق من حيث انتشار جماعة القبيسيات ضمن مستوى اجتماعي أرستقراطي ويحسب لها كذلك المحافظة على تدين الفتيات بعد فترة أحداث الإخوان المسلمين ، وتتبعها قيادة حمص القيادة المركزية من حيث تلقي التعليمات والمناهج وطريقة التدريس والتطوير وآليات التغلغل المجتمعي، إلا أن الجناح الحمصي قد اختط طريقته الخاصة في التفاعل عبر اختراق مؤسسات مجتمعية موجودة أصلا ومرخصة قانونيا فيما يفسره البعض بطريقة غاية في الدهاء للهروب من التبعات القانونية فقد عملوا على اختراق الجمعيات الخيرية والمنظمات المجتمعية وعملن تحت مظلتها وارتقى بهن الحال تدريجيا حتى وصلوا لمراحل قيادية في هذه المؤسسات ،غير أن انقسام المرجعية ظهر للعيان في مدينة حمص رغم محاولة التكتم عليه لسنين فهي تنقسم إلى قسمين متخالفين نشاطا ورؤية : الأول تابع للآنسة وفاء حمدون وهي مدرسة لغة عربية تنحدر من أسرة جذورها إخوانية وقتل النظام أخاها وهذا المجموعة يغلب عليها العنصر النسوي الشاب وعملت على التنسيق مع جمعية البر والخدمات الاجتماعية ويحسب لهذا التيار انفتاحه الفكري نسبيا، والثاني تابع للآنسة أمية أبو زيد، في مدينة حمص التي اخترقت المجتمع الحمصي من خلال مدرستها المميزة علميا (طلائع النور) والتي حازت على زيارة خاصة ومباركة من أسماء الأسد زوجة الرئيس السوري، ويحسب لهذه المدرسة نمطيتها الفكرية المتماهية مع عقلية

القبيسيات من حيث المبالغة في احترام الآنسة لدرجة قد تبلغ التقديس أحيانا، وقد انشقت عن ظاهرة القبيسيات بحمص مجموعة صغيرة (مجموعة روضة الثناء) فاتخذت منحى غريبا عن المجتمع السوري لكنه يتقاطع مع فكر القبيسيات الصوفي الأشعري المذهبي فاتجهت لمجموعة الأحباش اللبنانية كنوع من التعويض عن حالة النبذ التي مورست عليها من قبل القبيسيات ورموزها، وقامت إحدى رموز هذه المدرسة بكتابة مؤلف يتقاطع مع أفكار المدرسة الحبشية إلا أن هذا التيار لم يلق قبولا ولا رواجا شعبيين.

أما في حلب "فلم تستطع هذه الجماعة اختراق الجماعات الدينية النسائية فيها بشكل كثيف، وذلك لعدة أسباب من أهمها: عراقة المدارس والطرق الصوفية وتنوعها في المدينة حيث لكل حركة جناحها النسائي الخاص وهكذا تمترست الحركة الدينية النسوية بحلب خلف المؤسسة الدينية التقليدية.

تحولت ظاهرة القبيسيات بمرور الزمن من ظاهرة إصلاحية محلية إلى مؤسسة دينية متكاملة الأركان حيث تمدد نفوذها ونشاطها بالإضافة إلى سوريا إلى البلاد العربية في لبنان والأردن وفلسطين والكويت ودول الخليج عامة، وحتى في بعض دول الغرب نشهد بعض الانتشار لها. ويعتبر الانتشار الأوسع لها في الكويت من بين دول الخليج، حيث أسست أميرة جبريل جمعية "بيادر السلام" في عام 1981 ومن هنا سميت القبيسيات في الكويت باسم بنات البيادر، وذلك بمساعدة الكويتي يوسف سيد هاشم الرفاعي، وهي جمعية مرخصة من قبل الحكومة الكويتية وتابعة لوزارة العمل والشؤون الاجتماعية ، وتشرف على عدد من المدارس التعليمية والتربوية. واليوم بتنا نسمع أصواتاً من دول الخليج تحذر من انتشار هذه الجماعة وخطر أفكارها على نساء المسلمين 18 .

وتأتي سلسلة من الأسماء البارزة للآنسات القبيسيات اللواتي شكلن أعمدة قامت عليها الحركة حيث يمكننا أن نورد منهن: خير جحا والتي تلي الشيخة منيرة في رتبتها ومكانتها الروحية في الجماعة، ودلال شيشكلي (التي كانت مهددة أمنياً كونها إحدى اللاتي خرجن من سورية في ثمانينيات القرن الماضي)، ونهيدة طرقجي، ودرية العيطةالتي شكل كتابها فقه العبادات على المذهب الشافعي أحد أهم المراجع الدينية لدى الطالبات ولازال كتابا له حظوته رغم كثير من النقد الفقهي الذي وجه له، وسميرة الزايد التي اشتهرت بموسوعيتها حول السيرة النبوية التي سنذكرها لاحقا، وسعاد ميبر التي كتبت كتابا اختصاصيا في قضايا الاعتقاد واعتبر جرأة منها في اقتحام مثل هذا الباب على تعقيده، ومنى قويدر، وفائزة الطباع، ورجاء تسابحجي، ونبيلة الكزبري، وفاطمة الخباز التي تعد اليد اليمنى للشيخة الكبيرة.

وتُعد "أميرة جبريل" من الآنسات القبيسيات المقتدى بهن، ومن الآنسات في الصفوف الأولى المقربات إلى الآنسات الكبيرات، وعُرف عنها أنها من أشهر تلميذات الشيخة منيرة والتي تملك حضوراً وتأثيراً كبيرين. ويعود لها الفضل في انتشار الجماعة في لبنان والكويت. وفي جدل من سيخلف الشيخة منيرة فإن جبريل من المرشحات القويات للخلافة كما يقول عبد الرحمن الحاج لامتلاكها ما يؤهلها لتكون العقل المفكر للقبيسيات 20 ، وهذا ما يفتح أبواباً من التساؤلات عن مصير هذه الجماعة في حال موت الآنسة الكبيرة.

كما ساهمت الزيجات من مغتربين سوريين في بلاد غربية عدة في انتشار الجماعة وممارسة نشاطاتها هناك، ومن المعلوم أن ترتيب هذا النوع من الزواج ليس خاصاً بالجماعة فهي تحدث في الأوساط المحافظة وفي المساجد، فكثيراً ما يلجأ شاب متوسط الحال يريد الزواج إلى إمام المسجد

لتأمين له ترتيبات الزواج كافة بدءاً من اقتراح عروساً له إلى جمع المال لمساعدته في مسلتزمات الزواج.

المبحث الرابع أصولها الفكرية ومصادرها المعرفية

قلنا سابقاً إن جماعة القبيسيات لسن من أتباع حركة الإسلام النسوي، المتأثرة بالحركة النسوية العالمية في تفسير النصوص الدينية، واللاتي أخذن على عاتقهن التحرر من الخطاب الذكوري في تفسير النصوص المقدسة ومحاربة الأدوار النمطية للمرأة المسلمة، أو اللاتي نادين بإعادة قراءة القرآن قراءة نسوية. إنما هي جماعة عُرف عن أغلب آنساتها الأوائل اتباعهن المنهج الصوفي/ النقشبندي21 ، منذ بداية نشأتها نظراً للبيئة الدينية والاجتماعية المحيطة بهن في سورية آنذاك، ولذلك فمن غير المستهجن وجود بعض السلوكيات الصوفية واعتماد بعض الأذكار والموالد والأدعية المستوحاة من الطرق الصوفية مثل الطريقة النقشبندية تحديداً، كونها الطريقة الأكثر انتشاراً في سورية والطريقة التي أخذتها الشيخة "منيرة" من الشيخ أحمد كفتارو في بداياتها، إلا أنه لا يمكننا الجزم بأن الجماعة ظلت على هذا الخط طوال مسيرتها، حيث غلب على الآنسات الجديدات ومنذ تسعينيات القرن الماضي ابتعادهن عن التصوف ومنهجه بطابعه "الدرويشي" الساذج المنتشر بين صفوف الشعب البسيط، والذي يجد في روحانيات التيار الصوفي "الدرويشي" ملاذاً آمناً مريحاً من صخب الحياة وهروباً من ماديتها، وبات واضحا اللغة التجديدية في الخطاب الصوفي التي تتوخى الحذر في المرويات الدينية والتاريخية وتراجع كثيرا من المسلمات السابقة وتعيد إنتاجها بصورة أكثر علمية.

في مسيرتها الدعوية كان للجماعة مصادر قوة أطالت في عمرها وساعد على انتشارها وتمددها؛ الأول: دعماً معنوياً ودينياً من أغلب المدارس والتيارات الدينية التقليدية، كمدرسة الشيخ أحمد كفتارو قبل الانشقاق والابتعاد، كما نهلت من المرجعية الفكرية الدينية للدكتور البوطي، حيث قال في حضرة الدفاع عن القبيسيات من كونهن "يمثلن الإسلام الحضاري والوطني الواعي، البعيد عن الغلو المترفع عن النفاق"22 . بالإضافة إلى ذلك فقد أخذت الجماعة من أساتذة معهد فتح (مفتي دمشق عبد الفتاح البزم ود. حسام الدين فرفور) ومن جماعة الشيخ عبد الكريم الرفاعي العلوم الشرعية والدينية، ومن فقه د. وهبة الزحيلي.

وثانيهما فتمثل بالتعامل الأمني المعتدل معهم من قبل النظام الحاكم قياسا بغيرهم من التجمعات الدينية، فمنذ أربعين عاماً والقبيسيات يمارسن نشاطهن الذي شابته السرية في لحظات تاريخية ولكن غلب عليهن اشتهار نشاطاتهن العامة ومعرفة رموزهن ومؤسساتهن التربوية في الأعم الأغلب ، وتلك حالة لم تكن تخفى على نظام بأمنية النظام السوري فيما يفسره البعض بحالة رضا ضمني عن الأنشطة القائمة التي لا تتسبب بشكل مباشر بصدام مع النظام ،ويفسره آخرون في سياق استيعاب النظام لمثل هذه التجمعات وعدم الاصطدام مع فصيل ديني لايحمل رؤية سياسية، بخلاف حالة الأخوات اللواتي كن يتبعن لتنظيم الإخوان المسلمين بشكل مباشر ممن نالتهم القبضة الأمنية سجنا وتهجيرا، ويضاف لذلك أن الجماعة كانت شديدة الحرص في البعد عن السياسة فكرا أو ممارسة، فقد كان يُمنع أحيانا على الأخوات أو من هنّ من أقارب الإخوان المسلمين الالتزام مع القبيسيات أو الانتساب إليهن، بل تُحظر أية فتاة من الانتساب من اللاتي اعتُقل أي شخص من أسرتها لأي سبب كان، والتبرير لذلك يأتي من باب تغليب مصلحة الجماعة على أي اعتبار آخر.

في بداية نشأتها وبسبب محافظة الجماعة على العلاقة الطيبة مع معظم الجماعات والمدارس الدينية في سورية، مع احتفاظها على مسافة بعيدة من بعضها الآخر كجماعة كفتارو في وقت مبكر من نشوء الجماعة، بدا أن الجماعة تنهل علوماً ومعارف من مصادر دينية وشرعية مختلفة ومتنوعة.

ثم سرعان ما اتخذت الآنسة منيرة منهجاً تربوياً استند إلى مصادر علمية ودينية خاصة بهن، ومنعت مريداتها من حضور دروس أو المشاركة في النشاطات الدينية في مجمع أبي النور أو أي جامع تابع للمجمع، بل وأي مجمع أو جامع آخر تابع لأية جماعة أخرى، ومن تفعل ذلك تُوبخ وتُخير بين أن تلتزم مع الجماعة بشكل تام أو تتركها إن أرادت التنقل بين الجماعات الدينية الأخرى، وغدت تلك الطريقة منهجا متبعا سيطر على طريقة الجماعة في التعامل مع مريداتها مما تسبب بحالة إغلاق فكري واضح للطالبات، وعليه غلب على الجماعة احتكارها للدين أو الادعاء بأن بناء صلة سليمة مع الله تعالى لا بد وأن تكون من خلال الجماعة وحسب، ويأتي التبرير دائماً من الخوف على التأسيس الديني للطالبات من التشويش والاضطراب، إلا أنه يبدو أن هناك نظرة أخرى عن "الكفتاريات" أو حتى عن الجماعات الدينية النسائية الأخرى والتي اتسمت بين صفوف القبيسيات بالنظرة الدونية أو وسمهن بأنهن في درجة أقل منهن من الناحية العلمية والشرعية والاجتماعية، حتى طالت النظرة الدونية تلك إلى طريقة اللباس والهندام للأخريات . بالإضافة إلى ذلك وُجدت علاقة حيادية مرتابة من منهجها الدعوي جمعت الجماعة مع جماعة الشيخ بدر الدين الحسني الذي عبر المسؤول عنها أن وجود مدرسات قبيسيات في قسم الإناث من معهد بدر الدين الحسني هو "أمر لم يكن يحظَ بترحيب خاص ولا حرج فيه طالما أن المدرسة تقوم بواجبها التدريسي بمهنية وحياد" .

وبشكل عام تتبع جماعة القبيسيات المنهجية نفسها لحلقات الدرس الديني النسائية منها والذكورية، حيث تكون على شكل إلقاء دروس دينية بشكل وعظي دعوي خال من العمق العلمي أو التأصيل الشرعي الدقيق، حتى بلغ الأمر أن أطلقت بعض آنسات الجماعة الفتاوى جزافاً ودون تأصيل أو عودة إلى الفقهاء وعلماء الدين. وكون الجماعة دعوية محضة فإنه من الطبيعي أن تنقصها المرجعية الفقهية الرصينة، حتى شبهها البعض بجماعة التبليغ والدعوة، من حيث تركيزها على الرقائق والعبادات وطريقة نشر الفضائل الإسلامية بين أفراد المجتمع ومذهبها الصوفي الذي يعتمد على العبادة الفردية الروحية والبعيدة عن الشأن العام وخاصة المجال السياسي.

يختلف إذن منهج القبيسيات في طريقة دراسة العلوم الشرعية في المعاهد والكليات الدينية، كما أنهن لا يملكن مشروعاً فكرياً واضحاً أو أفكاراً تجديدية للدين، بل انصب نشاطهن على التركيز على القيم الإسلامية ونشرها بين صفوف النساء من خلال مدارسة سير الأنبياء والصحابة والتابعين، وحلقات لحفظ القرآن والتجويد حيث تحصل الطالبة في نهاية الدورة الشرعية على "إجازة القرآن". وقد اتخذن الوسائل الفنية الحديثة ووظفنها لصالح نشر الدعوة والتعاليم الدينية، حيث مارسن فنون التمثيل والإنشاد المستقى من ألحان الأغاني الدارجة وأُدمجت فيه كلمات دينية وجمل تتحدث عن القيم والأخلاق الإسلامية.

الكتب والمؤلفات:

من الكتب التي تُدرس ضمن الجماعة كتاب "المتاح من الموالد والأناشيد الملاح" الذي ألفته نوال أبو الفتوح والذي يُقال إن فيه الكثير من عبارات الحلول والاتحاد ومن الأشعار والمدائح النبوية، وهو كتاب لا يُتداول إلا في المراحل المتأخرة من الدروس وفي حلقات خاصة حيث يكون انتقاء الحاضرات دقيق. ومن المعلوم بين أوساط القبيسيات أن كتاباً أقدم من الأخير وهو محل إشكال كبير من حيث المضمون يحمل عنوان "مزامير داوود"، على شكل نوتات وقام على تأليفه حفنة من الآنسات كان يُدرس في تلك الحلقات، يحتوي على أناشيد ذكر صوفية مليئة بالتشبيب الإلهي وبأشعار رمزية تُقدس فيها الشيخة .

عُرف عن الجماعة سعيها لصياغة هوية شخصية مستقلة بها سواء من الناحية الوعظية أم من الناحية الشرعية في محاولاتها للاستقلال الفكري النهائي والتخلص من تبعات الارتهان لبعض الرموز والتيارات الدينية والتخلص من حالة الابتزاز الجماعاتي الديني الذي كان يمارس عليهن فشجعت رموزها على خوض غمار الكتابة العلمية الاختصاصية فقدكتبت بعض قيادات الجماعة مؤلفات خاصة بهن تُعنى بفقه العبادات، حيث اختصت كل آنسة بمذهب فقهي معين، فالآنسة درية العيطة كتبت في فقه العبادات 26 على المذهب الشافعي، ونجاح الحلبي على المذهب الحنفي وسعاد زرزور على المذهب الحنبلي وكوكب عبيد ألفت فقه العبادات على المذهب المالكي ورغم ما وجه لبعض تلك الكتب من نقد علمي أو ملاحظات منهجية إلا أن ذلك سجل كسبق جرئ في ميدان غلب على الاشتغال به رموز دينية من الرجال.

وأولت الجماعة قضية العقيدة اهتماما خاصا فقد حرصت على تأكيد (أشعريتها) العقيدية ومنهجها الصوفي (فكرا) والمذهبي (عبادة) فجاءت الجماعة تقليدية بصورة واضحة في التعاطي مع جميع محاولات التصنيف، وحرصت على مراعاة الشمولية العلمية في كتابة منهاجها، فقد كانت تُدرس في مناهج الجماعة : "جوهرة التوحيد في العقيدة" للبيجوري وهو عمدة الفكر الشعري المعاصر، و"المقدمة الجزرية" مع شروحها، و"إحياء علوم الدين للغزالي" في التربية والسلوك ، و"منهج النقد في علوم الحديث" لنور الدين عتر، و"مختصر تفسير ابن كثير" للصابوني، و"فقه السيرة" للشيخ محمد سعيد البوطي، و"رياض الصالحين"، وكتب للشيخ أبو الحسن الندوي مثل "رجال الفكر والدعوة في الإسلام" والذي كان يُدرس سراً وبين حلقات خاصة لاحتواءه على حياة وفكر مشايخ وعلماء دين ممن يُجرم ذكر اسمهم في سورية كالشيخ ابن تيمية وحسن البنا، وكتاب "دلائل الخيرات"، وكتاب "فتح الباري" لابن حجر العسقلاني، والذي أُستعيض عنه بكتاب "عقيدة التوحيد من الكتاب والسنة" لمدرسة معهد الفتح سعاد ميبر الذي كان يُدرس بشكل سري وللخاصة من الفتيات اللاتي بلغن المرتبة العليا في دراستهن، و"نجوم في فلك النبوة" لأسماء الطباع (2004)، وكتاب "السيرة" لابن هشام، والذي أُستبدل بكتاب "الجامع في السيرة النبوية" (جزءان) لسميرة الزايد قدم لمختصره البوطي قائلاً: "أهنئ الآنسة التي عكفت على إخراج هذا الكتاب طبق النهج العلمي الأمثل في خدمة السيرة النبوية والسنة المطهرة والفقه وأحكامه والثقافة الإسلامية عموماً وهو جهد سبقت فيه بحمد الله الرجال في هذا العصر"29 .

المبحث الخامس الهوية والبنية

الهوية الفكرية:

تتفانى المريدة في طاعة آنستها أو شيختها القبيسية لاعتقادها أن ذلك يقربها من الله ورسوله، وهو سلوك متعارف عليه بين الأوساط الصوفية سواء كانوا ذكوراً أم إناثاً، وكون الجماعة تابعة للمدرسة الصوفية التقليدية التي تولي تزكية النفس وتطهيرها الأولوية الكبرى، فإن طريقة تلقي العلوم الإسلامية غالباً ما تكون على الطريقة الصوفية أي من طريق شيخ/ة إلى مريديه/ا. إن حالة الاحترام المفرط تجاه المشايخ يعدها البعض ممن هم في سلك المشيخة أنها مجرد تعبير عن الشارع السوري فهو "شارع ديني أو متعاطف مع الدين ويحترم العلماء، وهذا الاحترام لا يصل إلى حد التقديس، أنا أقبّل يد العلماء، بالتالي أقبّل الفكر والحكمة وليس كل عالم تُقبّل يده أو يدها، ولكن لا نقصد بالاحترام تقبيل اليد أو الأرجل، أما أن نركع ونسجد لشيوخنا فهذا ليس من الدين"30 .

ومن باب هذا الاحترام المشيخي، فإن الفتيات في جماعة القبيسيات تستشير الآنسات في مسائلهن الشخصية كافة؛ كالزواج والدراسة والوظائف وحتى الكتب المراد قراءتها كما أكدت لنا السيدة أمل، إما احتراماً وتقديراً لخبرة الآنسات في الحياة وعلمهن بشؤون الدين أو نوعاً من التقرب

والتودد تقوم به الطالبات تجاه الآنسات كي ينالوا مكانة خاصة عندهن مع التأكيد على مراقبة الآنسات بشكل دائم من قبل من هنّ أعلى مرتبة منهن كي لا تستميل الآنسة الطالبات إليها وتُعلق قلب الفتيات بها لشخصها، ومن تفعل ذلك تُوبخ وتنقل من حلقة إلى أخرى أو تفصل من الجماعة حسب شدة السلوك. وينطبق الأمر نفسه على المريدات، فمن لُوحظ عليها تعلق ما وعاطفة جارفة اتجاه آنسة ما فإنه سرعان ما تُنقل إلى حلقة آنسة جديدة، وتُؤمر بقطع أية علاقة مهما كانت صغيرة مع الآنسة الأولى.

اتخذ هذا الاحترام المفرط مع الوقت أشكالاً شاذة ومتطرفة من الخضوع والاستكانة والتسليم المطلق للآنسات، ما خلق صورة سلبية مستلبة للطالبات وكأنهن منقادات دون إعمال للعقل أو أدنى حدود من الحرية، ولرغبة بعض الآنسات في السيطرة على الطالبات ربما بدافع خيري إلا أنه بأسلوب سيء اتخذ شكلاً من أشكال السيطرة الذي لا يخلو من الطابع المخابراتي والذي انتقلت عدواه من نظام البعث الحاكم في سورية، حيث كانت بعض الآنسات تحول العديد من الفتيات المقربات إليهن إلى مخبرات تكتبن التقارير وتنقلن ما يُتداول بين الطالبات من أخبار وأفكار ونشاطات وتحركات شخصية... لتستغل الآنسة ذلك من أجل فرض نفوذها على الفتيات وتقديم صورتها وكأنها من أهل الكشف والولاية والكرامة الخاصة بالأولياء العارفين، يطلعها الله سبحانه وتعالى على ما يدور في سرائر الفتيات، فتعرف كل تفاصيل تحركاتها من أجل مصلحة الفتيات أنفسهن للحفاظ على دينهن ولإرشادهن إلى الطريق القويم كلما حاول الشيطان الدخول في النفوس! ثم تطرف الأمر أكثر حيث عُدت مقابلة الشيخة الكبيرة أو إحدى المقربات منها من الطبقة الأولى أنها مسألة تتعلق بالاصطفاء والامتياز من الله تعالى، ومن حُرمت من اللقاء فذلك لأن الله لم يرد لها هذا الاختيار! كما ونشهد شططاً كبيراً في احتكارهن العلم وطريق الوصول إلى الله وحصره باتباع طريقهن ومنهجهن وحتى طريقة حجابهن، وأنهن وحدهن يمثلن أتباع الطريق الحق.

البنية التنظيمية والهيكلية القيادية:

إننا نلمس وضوحا في التراتبية الهرمية بين الأخوات القبيسيات ليست بطريقة الجماعات والتنظيمات التقليدية والهيكلية المؤسساتية بل تتجسد بالمظهر والمضمون؛ فالمظهر يبدو من خلال طريقة اعتماد اللباس المكون من "المانطو" وألوان غطاء الرأس (التي تشي بوجود تراتبية ما، فالأبيض والأزرق والأسود حسب رتبة الدرجة العلمية والتحصيل الشرعي الحاصلة عليه القبيسية) ، ويعود أصل هذا اللباس إلى دراسة الآنسات والشيخات الكبيرات لأنسب طريقة للباس الشرعي يمكن أن يكون مقبولاً اجتماعياً وأمنياً ويحمل هوية دينية معتدلة، ومن ثم لا يخالف الدين الإسلامي حسب ما ارتأين بالتزامن مع تأكيدهن على عدم التبرج والتقيد بمظاهر تشي بالتزام العفة والحياء في المشي وخفض الصوت وعدم إطلاق النظر على المحرمات.

أما التراتبية الهرمية بالمضمون فمن حيث رتبة الآنسة وماهية علاقتها مع الآنسات الكبيرات ومكانتها في الجماعة، كل ذلك من الممكن أن يُظهر القبيسيات وكأنهن ضمن تنظيم إداري وهيكلي معين. ومع أنه لا وجود لشروط وآليات محددة للانتساب، فإنه يمكن تصور التراتبية البنيوية للجماعة على النحو التالي :

"الحجَّات": وهن الطبقة الأولى والنواة المركزيّة والمرجعية النهائية التي تدير الجماعة وحلقاتها وتضع الخطط والبرامج وتشرف على التنفيذ العام وتُرفع إليهن التقارير وترجع إليهن الآنسات في كل شؤونهن ولا تستطيع الطالبات الوصول إليهن إلا بعد المرور بمرحلة زمنية من الالتزام مع الجماعة وتزكيات خاصة وثباتٍ على المواظبة وظهور الولاء المطلق للجماعة.

الآنسات/ الخالات الكبيرات: وهنَّ الذراع التنفيذية للخطط والبرامج وعلى عاتقهنّ تقع مسؤولية الاستقطاب والوصول إلى الشرائح المستهدفة، وهنا تكمن سلسة تراتبية من الآنسات يتمايزن بألوان حجاباتهنّ من الأزرق السماوي إلى الكحلي الغامق وما بينهما من درجات.

المريدات/ التلميذات: وهنَّ القاعدة التي ترتكز عليها الجماعة في عملها، والشريحة المستهدفة، ويتم تأطيرها في حلقات تتبع كلّ حلقةٍ لآنسةٍ فيما يشبه الخليّة التنظيميّة التي تلتقي بشكلٍ دوريٍّ ويقدّم لها منهاج مدروس ومقرر من الآنسات الكبيرات أو "الحجّات" وينتقلن تصاعديًّا من آنسةٍ إلى أخرى؛ أي إلى حلقةٍ جديدة بعد تحقيق شروط معينة وإنهاء مناهج محددة.

إن تقرب المريدة من الآنسات يخضع إلى شروط دقيقة، فلا يكفي أن تكون من حفظة القرآن أو تكون سريعة في تعلم أصول الفقه أو فقه العبادات أو العلوم الشرعية الأخرى... بل لا بد أن تخضع إلى دراسة صارمة حول حالتها العائلية وعلاقاتها، فمن كانت من أسرة تضم فيها رمزاً سياسياً أو بعثياً فإنه لا يُسمح لها بالتقرب أو الانتقال بين الحلقات الدراسية بأريحية، وتُلقن العلم الشرعي بحدوده الدنيا دون التوسع مع عدم منحها امتيازات لحضور حلقات توجد بها آنسات من الطبقة الأولى أو الثانية للجماعة أو حلقات يُتدارس فيها كتباً ممنوعة، فنوعية الكتب والمواد تختلف حسب الفتاة ومرجعيتها العائلية.

وتغدو التلميذة آنسة على حلقة دراسية أخرى وعلى فئات عمرية أصغر، بعد قطعها لمرحلة تعليمية معينة تؤهلها لممارسة التعليم الشرعي وتحفيظ القرآن وتجويده مع وجود شرط ضروري وهو سماح الآنسة لها بممارسة التدريس وتشكيل حلقات لتحفيظ القرآن.

ومما يؤخذ على الجماعة من حيث هويتها ومنهجها أنها تفتقد إلى رؤية تسعى إلى نهوض فكري بالمجتمع يُساهم في نهوض أمّة . وهذا ما لا يمكن حصره بالجماعة وحدها، وذلك لسببين: الأول؛ أن الجماعة ابنة بيئة سورية دمشقية الأصل منغلقة، خبرت سنيناً من القبضة الأمنية والمراقبة المخابراتية الشديدة، حيث عاش أغلب المجتمع السوري حالة من الاغتراب والرهاب والخوف طال فئات المجتمع كافة. الثاني؛ أنها جماعة تضم نساءً ولم يسجل التاريخ وجود جماعة نسائية تملك رؤية عميقة ومستقبلية تحمل هموم الأمة، بل كانت جلها جهوداً تركز على التربية الروحية وتزكية السلوك مع وجود بعض الحالات الفردية التي جعلت نصب أعينها قضية الأمة الإسلامية أساس فكرها ونشاطها. والعكس صحيح، فمن الممكن القول بأن النهوض الذي ساهمت فيه هذه الجماعة يمكن أن يصب في الجهود التي سعت للحفاظ على عفة الفتاة وعودة مظاهر التدين إلى مجتمع المرأة السورية في بعض المدن التي سجلت فيها حضوراً كبيراً. ومن اللافت للنظر أن معظم "القبيسيات" من خريجات الجامعات العلمية كعلوم الطب والهندسة والعلوم الطبيعية... ومعظم الآنسات موظفات في القطاعين العام والخاص، ويقل هذا المستوى العلمي العالي كلما ابتعدنا عن المدن الكبيرة كدمشق.

أما الانعزالية الاجتماعية التي تسم هوية جماعة القبيسيات فيمكن أن تظهر في اقتصار علاقاتهن الاجتماعية ونشاطاتهن الدينية والدعوية على الحلقات القريبة جداً وعلى كل من هي داخل مجال الجماعة، حتى لنجدهن كمجتمع صغير في قلب المجتمع النسائي السوري. أما الانعزال في العبادة أي الاعتكاف واتخاذ أغلب القبيسيات مكاناً قصياً بعيداً عن العائلة من أولاد أو أهل أو زوج من أجل الصلاة والعبادة والأذكار والأوراد والتي قد تؤدي إلى إهمال الأسرة أحياناً، فهي ليست خاصة بالأخوات في الجماعة، إنما هو سلوك يتبعه أصحاب الطرق الصوفية المنتشر في المجتمع السوري، بأفراده من الرجال والنساء.

وبخصوص الانعزالية السياسية فالقبيسيات بعيدات عن الحياة السياسية بشكل كبير، ويمتنعن عن التحدث إلى وسائل الإعلام أو إجراء حوار مع باحثين للكتابة عنهن بهدف تبيين ما يُتداول خطأً عنهن، والدافع الأول لهذا الانعزال يعود ربما إلى دواعٍ أمنية بحتة، فحتى بعد الانفتاح النسبي والخروج إلى المجال العام (المساجد تحديداً) ظلت السرِّية صفة خاصة طبعت سلوك الجماعة ونشاطاتها35 .

وفيما يخص مسألة الزواج والعنوسة التي تكاد تطبع سلوك الجماعة، فلم يُقدم إلى الآن على حد علمنا تفسير واضح دقيق حول ظاهرة عزوف نساء هذه الجماعة عن الزواج فمن قائل إن ذلك مرتبط بظاهرة العلماء العزاب، الذين يتخذون من نشر الدعوة مساراً حياتياً كاملاً كون الزواج قد يلهي عن هذا الهدف السامي وإعلاء قيمة التقرب إلى الله عبر العبادات، علاوة على وجود حواجز نفسية وعاطفية راسخة بين صفوف الفتيات. وبسبب التربية الدينية الصارمة والفصل التام بين الجنسين وتصوير الرجل وكأنه كائن مادي غرائزي لن يتوان عن الانقضاض على كل أنثى حوله، (ومن هنا أتى أيضاً ترك الفتاة مظاهر الأنوثة وتبني مظاهر وسلوك ذكوري في كثير من الأحيان) تصبح الفكرة العامة عن الزواج (خاصة الحياة الزوجية الحميمة) أقرب إلى الحياة الدنيوية المادية الغرائزية... كل ذلك خلق نوعاً من النفور لدى الفتيات من الرجال ومن فكرة الزواج، وهذا بالضبط ما جعل أغلب "القبيسيات" الكبيرات غير متزوجات، أي طغيان المبادئ الصارمة من قسوة وحزم وترهيب على النهج التربوي للجماعة، الأمر الذي أبعد الفتيات اللاتي يتأثرن بالآنسات عن فكرة الزواج، عدا عن أغلب الآنسات القبيسيات يتمتعن بقوة الشخصية والاستقلال، ما يجعل الخضوع لرجل حتى ولو كان شريك العمر أمراً صعباً 36 . ومن هنا رماهن البعض بظاهرة الرهبنة المسيحية، أو اتهمن بإصابتهن بعقد نفسية مختلفة.

المبحث السادس نشاطات الجماعة بين المجال الخاص والمجال العام

يعد البعض القبيسيات جماعة أدركت دور المرأة كونها عنصر مهم في المجتمع، وأنه من الضرورة بمكان التركيز عليها ليصار إلى تربيتها وفق مبادئ ومبادئ الجماعة المستقاة من الشريعة، كون المرأة هي نفسها الأم والزوجة والمربية وتقع على عاتقها مسؤولية تنشئة جيل كامل على الأخلاق الإسلامية، والمسألة هنا فيما نعتقد لا يجب أن تُفهم من باب نشر فكر الجماعة إنما نشر الإسلام وتربية الفتيات على الأخلاق والقيم الإسلامية في مجتمع يذهب إلى العلمانية والإلحاد والتفلت الأخلاقي في كثير من الأحيان تحت مظلة البعث الحاكم.

فخلال ما يزيد عن أربعة عقود عملت بها"القبيسيات" كانت الصورة الغالبة عليهن سعيهن إلى إحياء الدين الإسلامي ونشر الأخلاق والفضائل الإسلامية بالسر والعلن، فالهدف المشترك للناشطات في الجماعة هو إعادة نشر الإسلام وتعاليمه وعلى رأس الأولويات قضية الحجاب، فالحجاب وطريقة اللباس يأخذ حيزاً خاصاً ومهماً في نشاط الجماعة، مع التأكيد على أن خاصية هذه المسألة ليست مقتصرة عليها، فمن المعلوم أن المجتمع السوري بمجمله مجتمع محافظ ويعتبر مسائل الحشمة والحياء والعفة من أهم المسائل المرتبطة بتربية الفتيات.

لدى فتيات الجماعة قناعة وإيمان بأن مظاهر التدين والإسلام بشكل عام لم يكن ليوجد لولا الجماعة، فمنذ ظهور الجماعة مروراً بالمحطات الكثيرة التي مرت على سورية؛ إما في محاربة مظاهر التدين أو في صعودها (منذ 2000 إلى 2011)، كان للجماعة الفضل في المحافظة على القيم والأخلاق الإسلامية في المجتمع السوري المحافظ، من خلال الحض على الحجاب، وحفظ القرآن والتعليم الروحي... وفي الواقع للآنسات القبيسيات الفضل في تعريف البنات بأمور دينهن التي قد تتحرج الأمهات من الخوض فيها، ففي ظل غياب دور الأم التربوي والتنشئة الدينية

الملتزمة وانعدام التعليم المدرسي الديني لأصول الدين والشريعة، فإن الجماعة تقوم بهذا الدور في تأسيس الفتيات دينياً وأخلاقياً. كما حققت للفتيات شعوراً بالانتماء في جو اجتماعي بين حلقات الآنسات والمريدات أو بين المريدات فيما بينهن، وعن طريق المدارس الخاصة يحاولن خلق حدٍ مقبول من الالتزام الديني. وفي نظر علماء الدين والمشايخ فإن وسائلهنّ ومناهجهن التعليمية الدينية أفضل من الوسائل التعليمية الحكومية، على الرغم من أنه لا وجود لأية خطوة أو حركة تتم خارج الاتفاق مع وزارات نظام الأسد الثقافية والتعليمية.

تشجّع الجماعة الفتيات على قيام الليل وإقامة الفرائض والورد الليلي والتسابيح اليومية والأذكار وعدم الاختلاط وتحري الشبهات في السلوك والقول من خلال دروس دينية على شكل حلقات تُعقد بشكل دوري في المساجد أو منازل إحدى الآنسات والداعيات، غالباً ما تكون مغلفة باحتفالات دينية كليلة القدر ومنتصف شعبان والمولد النبوي وحفلات تكريم للفتيات اللاتي أتممن حفظ أجزاء من القرآن أو ختم القرآن كله... و"هناك حلقات تقام في المساجد للداعيات الكبيرات لدى الداعية منيرة وهي خمس مساجد وحصلوا على ترخيص رسمي من وزارة الأوقاف، ويمتلئ حرم هذه المساجد عندما تعطى هذه المحاضرات"37 . كما تحرص على تنمية شخصية الفتاة وتقويتها، وحثها على طلب العلم والوصول إلى المراتب العليا وخلق حالة من التنافس الشريف، وتولي بعنايتها اكتشاف مواهب وطاقات وقدرات البنات وتنميتها بشكل يخدم الجماعة وممارسة نشاطاتها الدعوية بشكل منظم وهادف.

لا تعتمد الناشطات الداعيات في نشاطاتهن للإعلان عن الجماعة بطريق المطويات أو المناشير الورقية أو التغيير الفكري فلا يوجد لهن مراكز دعوية خاصة أو مؤسسة معينة وإنما اعتمدن على الدعوة الفردية التي تؤدي إلى التغيير السلوكي، بل اعتمدت دعوتهن على شبكة علاقات اجتماعية واسعة. والطالبة التي تجلب فتيات جديدات إلى الجماعة تنال حظوة كبيرة عند الآنسة. ويتم التقرب من الفتيات المراد إرشادهن إلى الطريق عن طريق الحفلات الاجتماعية، أو الدينية كالمولد النبوي، أو مناسبات الموت والعزاء، أو في مدارس البنات وذلك من خلال إظهار الاهتمام الشديد وتقديم المساعدة وحسن المعاملة لحل المشاكل أو الخدمات المختلفة وزيارة منازل البنات والتعرف على الأهل ثم دعوتها إلى منزل إحدى الآنسات لتلقي التعليم الديني. وكان لوجود الآنسات ذات الحضور القوي والمؤثر اللاتي امتلكن فن الخطابة والقدرة على التأثير العاطفي أثر كبير في نفوس النساء مما ساعد على قبولهن في أوساط تلك العائلات.

ومما ساعد على انتشار الجماعة دخولها بين طبقة الأغنياء والطبقة ذات المكانة الاجتماعية المرموقة وبين نساء أصحاب النفوذ ورجال الأعمال حيث قدمت مصداقية وقبولية لصورتهن في الأوساط النسائية بشكل واسع، ولم يكن التقرب من الأغنياء استراتيجية تعتمده الجماعة للتأثير في السياسة، فهذا النهج أُتبع من قبل أغلب التيارات والجماعات الدينية في سورية، خاصة في المدن المركزية، حيث عُد نشر الدين وتعاليمه بين أفراد الطبقة الغنية إنما هو بمثابة نصر للجماعات الدينية كون أفراد تلك الطبقة قد تكون غارقة في حياة من الترف والدعة والبذخ تجعلهم بعيدين عن الدين. هذا النفوذ المديني والممتد إلى طبقة الأغنياء طالت فئة من المسؤولين في الدولة حيث فُتح لهن المجال واسعاً لجمع مبالغ من أجل التبرع للأعمال الخيرية، مع الإنجاز بسرية كي لا تكتسب الجماعة حاضنة شعبية وتتوسع أكثر فتفتح أعين المخابرات على نشاطهن الخيري فيُلاحقن ويُضيق عليهن.

تشرف جماعة منيرة القبيسي على نصف مدارس تحفيظ القرآن ، كما تدرس أكثر من 40 آنسة داعية في مساجد سورية والمرخص لهن العمل في المساجد، عدا عن المدارس الخاصة التابعة لهن، فمنذ الثمانينات "قامت منيرة القبيسي بالانتباه إلى ثغرة هامة في الواقع التعليمي وهو وجود

عدد من الرخص القديمة لمدارس خاصة متهالكة، بدأت القبيسيات بشراء هذه الرخص أو استثمارها ومشاركة أصحابها، عبر شبكة علاقات لأزواجهن من رجال الأعمال، وخلال نحو ثلاثين عاماً أصبحت منيرة القبيسي وتلميذاتها يمتلكن نحو مائتي مدرسة خاصة في سوريا، وتميزت هذه المدارس بالتفوق الكبير على النظام الحكومي على الرغم من تعرضها المستمر للمضايقات من الأجهزة الأمنية"38 . ومن المدارس الابتدائية الخاصة بالجماعة نذكر: "دار الفرح" في حي المهاجرين في دمشق التي تديرها منى قويدر، و"دار النعيم"، و"مدرسة عمر بن الخطاب"في المزة، و"عمر عبد العزيز" في الهامة، و"دوحة المجد" في المالكي، و"البشائر" في المزة، و"البوادر" في كفرسوسة.

أما المساجد التي فُتحت للجماعة لتحفيظ القرآن وتجويده في دمشق فمنها جامع الوزير في المهاجرين، والأبرار في مشروع دمر، والرحمن في المزة فيلات غربية، وجامع بدر وجامع الحسن وجامع زيد وجامع سعد في المالكي39 ، وفي حمص فنذكر: مسجد عمر بن الخطاب بحي الحمراء (بشكل متقطع)، ومسجد القاسمي بالسوق المسقوف، والروضة بالوعر. هذه النقلة من البيوت إلى المساجد شكلت خطراً أكبر على الجماعة فأصبح المجال مفتوحاً بأن يدخل من شاء إلى المسجد دون رقابة أمنية من قبل الجماعة مما خلق الكثير من الضغوط النفسية غير المريحة على الآنسات والطالبات واقتصرن على دراسة فقه العبادات في المساجد، بينما تُؤجل قراءة الكتب الأخرى الممنوعة في سورية مثل كتاب الندوي أو كتب العقيدة إلى حلقات خاصة كانت تُعقد في المنازل وتحت حذر شديد.

أما بخصوص المواد العلمية فيؤخذ على الجماعة أنها تركز على تعليم الدين تعليماً خالياً من المضمون، بآليات ومنهجية أقرب للتلقين والحفظ عن ظهر قلب دون فهم وإدراك حقيقي للنصوص خاصة القرآن الكريم40 ، وبدورنا نذكر أن هذه المنهجية ليست خاصة بجماعة القبيسيات وحسب، فأغلب التعليم الديني تقليدي بهذا المعنى ويتخذ الأسلوب نفسه. كما وأن الجماعة لا مانع لديها من تكرار المناهج ودراسة الكتب بشكل متكرر والتي اجتازتها الطالبة مسبقاً دون إدخال كتب أو مناهج جديدة كما يحدث في حمص.

تعمل الجماعة على تشجيع العمل في القطاعات العامة والخاصة، خاصة في مجال التعليم مما يساعد على نشر نفوذهن بشكل أكبر وفتح مجالات واسعة لممارسة الدعوة والإرشاد والتوجيه الديني. وقد استطاعت الجماعة ومن خلال علاقاتها الناجحة مع وسطاء بإمكانهم الوصول إلى مراكز القرار والمسؤولين ورجال الأمن افتتاح مدارس خاصة بهن تتبع وزارة التربية والتعليم السورية في مناهجها وآلية إدارتها، لكن لكل مدرسة مساحة خاصة بها تمكنها من إضافة بعض الدروس الدينية وإقامة النشاطات والحفلات الدينية والاجتماعية ويتم التركيز على الفضائل والأخلاق الإسلامية، مما رغب الطبقة المتديّنة الوسطى في إرسال أولادهم إليها، وبالإضافة إلى البعد الأخلاقي والديني لعب البعد الاقتصادي كذلك في رغبة شريحة واسعة من الطبقة الوسطى في تسجيل بناتهم في تلك المدارس حيث كانت رسوم تلك المدارس منطقية ومقبولة بالمقارنة مع المدارس الخاصة الأُخرى ذات الرسوم المرتفعة.

امتد نفوذ الجماعة في المجال العام إلى تقديم مساعدات خيرية وبعض الخدمات الطبية41 ، وأشرفت بعض الآنسات القبيسيات على جمعيات خيرية مثل جمعية البر في حمص التي أُنشأت من تبرعات بعض تجار مدينة حمص وأقيم فيها مشاريع للأيتام ومشفى ومكتبات ومشغل وروضة ومركز لغوي خاص بالجمعية، وأقيمت فيه حملات لجمع الثياب المستعملة وتوزيعها على الفقراء.

المبحث السابع سرية الجماعة شعبياً وعلنيتها أمنياً

من غير المنطقي الحديث عن حركة أو جماعة أياً كان توجهها ناشطة داخل سورية في حكم الأسد الأب والابن القمعي المخابراتي بشكل سري؛ فكل الحركات والأحزاب والجماعات، على اختلاف توجهاتها سواءً كانت إسلامية أو علمانية، أُخترقت أو أُكتشفت ولوحق بعض أفرادها وأبعد الآخر ووضع غيرهم تحت المراقبة، فكيف بحركة نسائية دينية دعوية وفي قلب العاصمة دمشق!

مع ذلك وبعد الانفراجة الدينية الممنهجة وانتشار مظاهر التدين وافتتاح معاهد تحفيظ القرآن في مختلف المدن السورية، ظلت الجماعة تتحرك بسرية، كما قلنا سابقاً، ويحق لنا هنا أن نتساءل لماذا ظلت هذه السرية ملازمة لتحركات الجماعة في ظل بيئة أمنية ومجتمعية أصبحت شيئاً فشيئاً تقبل بوجودهن ونشاطاتهن؟ لدرجة أن وصلت مسألة السرية حداً من الطقس المتعارف عليه يُتداول بين الطالبات المستجدات وكأنه من شروط الانتساب؟ مع أن اللباس الموحد بين القبيسيات كفيل بأن ينفي عنهن تهمة السرية، فمن السهل الدلالة عليهن وهنّ في الشوارع أو المساجد أو الجامعات أو في الأماكن العامة، إلا أنهن اتخذن من الحذر منهجاً دائماً في تنقلاتهن فكن لا يخرجن جماعات بعد الانتهاء من الدروس بل إما فرادى أو على شكل فئة قليلة (ليس أكثر من أربع طالبات)، كما أن الدروس والحلقات الدينية وجلسات الذكر التي كانت تعقد في بيوت إحدى الآنسات أو التلميذات كانت بغطاء مناسبات واحتفالات اجتماعية في أغلبها وبشبه سرية.

وتفسر هذه الظاهرة بأنها سرية بالمعنى الشعبي؛ أي أن عامة النساء والرجال بطبيعة الحال لا يملكون الكثير من المعلومات عن الجماعة وليسوا على مسافة قريبة منها. ونظراً لحالة الرهاب المجتمعي الذي طال المجتمع السوري برمته، وتداول قصص التعذيب والاعتقال والاختفاء والسجن في الجلسات الخاصة، وخاصة بعد ثمانينيات القرن الماضي، فإن الجماعة كانت تعمل على حذر شديد وابتعدت عن أي ارتباط سياسي أو حزبي، وطوال تاريخها لم تحاول التفكير ربما في تأسيس حركة إصلاحية دينية اجتماعية منظمة على شاكلة ما تم في مجتمع الرجال.

ظلت الجماعة إذن تعمل في المجال الخاص إلى أن استلم بشار الأسد السلطة عام 2000، عندما تواسط بعض المشايخ لخروج الجماعة إلى العلن وممارسة نشاطاتهن في المساجد والمدارس الخاصة بهن، أحد الذين تبنوا رأي انتقال الجماعة من السر إلى العلن كان د. محمد حبش الذي يقول: "خلال خدمتي في مجلس الشعب تبنيت مبدأ إخراج القبيسيات من الغموض إلى العلانية، وكان موقفي يستند إلى قناعتي بأن المجموعة هي في الواقع مجموعة تعليمية ناجحة لا تمتلك أي برنامج سياسي وأن ممارسة إرعابها ومحاصرتها قد يدفع كثيراً من أبناء الجماعة للتطرف، وبالفعل فقد تمكنت من الحصول على عدد من الرخص لشيخات قبيسيات لممارسة العمل العلني في المساجد في سوريا وكان ذلك بداية خروجهن إلى العلانية منذ عام 2005"42. كذلك د. البوطي الذي أوضح أن عدداً من المشايخ أبلغ السلطات بأنه "من مصلحتكم أن تعطوا الموافقات للعمل بالعلن. أعطوهن المواثيق للعمل العلني لأن عملهن مستقيم ووطني ليس فيه أي شائبة ولا علاقة له بالسياسة". واتفق نجلا كفتارو والبوطي على أن "الأخوات القبيسيات يقمن بالدعاء المستمر للرئيس بشار الأسد من دون التطرق إلى السياسة". وزاد البوطي: "ولاؤهن للوطن كبير"43. ثم استطاعت القبيسيات التدريس في المدارس الحكومية والوصول إلى مراكز حساسة فشغلت مناصب حكومية عالية في وزارة الأوقاف مما ساعدهن على المساهمة في صياغة المناهج الدينية. (لاحقا وصلت إحدى الآنسات لمنصب معاون وزير الأوقاف)
ولا بد من القول أنه في الوقت الذي كان فيه الرجال المشتبه بارتباطهم بنشاطات إسلامية يعتقلون ويستجوبون ويسجنون، لم تستطع الأجهزة الأمنية من ممارسة النهج نفسه إزاء النساء لدواع إجتماعية بحتة وإن كانت الاستدعاءات الأمنية تتم أحيانا فكانت المعاملة لائقة، وإن حاول الأمن مس إحداهن فإن ذلك سيسبب باعتراضات من قبل الأهالي والرموز الدينية وحتى بعض المسؤولين والمتنفذين في الدولة.

بالسياق نفسه لايسع الباحث إلا أن يتساءل عن هذه الانفتاحة الأمنية على القبيسيات فيما كانت تمنع بعض المؤسسات النسوية من ممارسة أنشطتها بينما و منعت الكثيرات من تأسيس جمعيات نسائية خاصة بحقوق المرأة وتم التضييق على جمعيات المجتمع المدني في إشارة واضحة إلى توظيف الدين والمتدينين ومظاهر التدين لصالح النظام السوري ومصالحه الخارجية في تقديم صورة عن الحالة الاجتماعية والدينية في سورية، وأنه الراعي الرسمي للتدين المعتدل تارة، حسب زعمه، أو أنه الوجه المشرق لعلمانية يحلم بها الغرب في بلد عربي كسورية تارة أخرى.

وعليه يمكننا القول، إن جماعة القبيسيات أدت إلى حدٍ ما الدور نفسه الذي كان للجماعات والتيارات الدينية في سورية من كونها مثلت صمام الأمان في وجه أي انفجار لحراك اجتماعي أو سياسي أو ثوري قد يطرأ على المجتمع من خلال تعزيز منهجية الفكر الديني الذي يركز على أخلاق الفرد والتركيز على علاقة الفرد الخاصة مع الله، دون الالتفات كثيراً إلى الشأن العام.

إلا أن منهج الجماعة في الانكفاء الكبير والانفتاح المدروس، وممارسة الدعوة الدينية الناعمة المنعزلة عن وسائل الإعلام والبعيدة عن الدراسات البحثية أدى إلى خلق هالة من الأسئلة وإشارات الاستفهام حول هذه الجماعة وفكرها وآنساتها، ما فتح الباب للمجال الصحافي والتلفزيوني لاقتحام هذه الجماعة وهتك أسرارها. وقد لوحظ اهتمام كبير في الإعلام حيث قدمت سلسلة من المسلسلات تسلط الضوء على الجماعة ففي عام 2004 "عرض مسلسل "عصي الدمع" نقداً لأفكار القبيسيات وتصوراتهم الدينية (التي عرضها المسلسل باعتبارها تصورات منغلقة)، ثم في رمضان 2006 عُرض مسلسل "الباقون" في ثلاث حلقات بعنوان "البرزخ" سلط فيها الضوء على الأسلوب التبشيري الذي تتبعه القبيسيات لتعزيز انتشارهن، والتصورات الفكرية التي تنتشر في أوساطهن"44. أما مسلسل "ما ملكت أيمانكم" والذي يتناول أيضاً القبيسيات بأسلوب سيء ومهين، فقد طالبت وزارة الأوقاف ود. البوطي بضرورة وقف بثه إلا أنه لم يتم الأمر، وبعد أن هاجم البوطي المسلسل عدل من رأيه وصرح أنه سيترك الأمر إلى المشاهد ليحكم فيه45. ،وتسليط الإعلام الأضواء على جماعة القبيسيات له دلالة واضحة على الانتشار الواسع لهذه الجماعة وبروزها كأحد الظواهر الاجتماعية الواضحة في تحديد هوية المجتمع ،كما أنه يؤكد ما تسرب من تململ التيارات العلمانية في سورية من هذه الظاهرة ومحاولة التحريش بينها وبين السلطة للحد من نفوذها ولاسيما أن المخرج (نجدت أنزور) الذي تصدى لبسط هذه الظاهرة مشتهر هو وفريقه باللادينية المفرطة.

المبحث الثامن النأي بالنفس عن السياسة... سياسة

إن غياب التصور الشامل لدى جماعة القبيسيات عن الواقع والحياة وضمور فكرة التغيير الشامل لديهم كما في أدبيات الجماعات الأخرى ،يضاف إلى ضمور دراسات الفكر الإسلامي عموما لديهم وغياب الممارسة السياسية والتنظيمية بالمعنى الحركي أدى إلى ضبابية الموقف السياسي من الأنظمة الحاكمة التي يحيون في كنفها وخصوصا النظام السوري وبقيت العلاقة معه لفترة طويلة علاقة متوجسة متحفظة من الطرفين ،تقوم على كثير من البراغماتية تمارسها الجماعة نتيجة استشارات وتوجيهات مشيخية ذكورية كما في نصائح الحبش والدكتور البوطي،وعلينا هنا أن نفرق بين موقف قياديات الجماعة وبين الآنسات والتلميذات اللاتي غالباً ما كنّ إما مع الشيخة أو الآنسة الكبيرة قلباً وقالباً أو ربما قد نجد فئات تخالف هذه المواقف، وهذا ما تجسد جلياً في ترك العديد من الآنسات والتلميذات الجماعة.

ولا بد أن نعي ونحن نطلق حكماً على موقف الجماعة السياسي حالة الخوف الشديدة من الجهاز الأمني والمخابراتي التي سكنت النفوس رجالاً ونساءً، وبات الأمر مضاعفاً بالنسبة للنساء لكونهن الجهة الأضعف في المجتمع ولهن خصوصية يشكل انتهاكها دمارا للفتاة.

علاوة على ذلك فإن موقف القبيسيات السياسي هو موقف أغلب المشايخ في مختلف الجماعات والمدارس الدينية التقليدية في سورية نفسه، الذين إما نأووا بأنفسهم عن السياسة تحت ذرائع عدة أهمها الحفاظ على سيرورة العمل الدعوي كما هو حال أغلب المدارس التقليدية ، أو كانوا على مذهب طاعة الحكام وولي الأمر ونهوا عن الخروج عليه، وشرّعوا عدم الخوض في الشأن العام وتكرار الخطاب السياسي للنظام من زاوية دينية؛ بالتالي فإن تشجيع هذا النوع من التدين الشعبي والسماح للجماعة بممارسة نشاطاتها الدعوية والتربوية، وإن كان على شكل حركات وجماعات مثّل ضرورة أمنية لحكومة الاستبداد كونها بعيدة عن ما يعرف بالإسلام السياسي أو التدين الحامل لأجندات سياسية، عدا عن الدور الاجتماعي والديني المهم المنوط بالجماعة كون القبيسيات شكلنّ صمام الأمان للمجتمع واستقراره ضد أية حركة أو جماعة من الممكن أن تلعب دوراً في زعزعة الركود المجتمعي والسياسي الذي اجتاح سورية طيلة 50 سنة.

ويمكننا كذلك قراءة موقف الجماعة في أن سياسة النأي عن السياسة "حمى الأخوات في أحلك الظروف التي مرت بها سورية والمنطقة حتى لا تتهم الجماعة بممارسة الإسلام السياسي المبطن بالتالي يتم القضاء على الجماعة وإنهائها في ظل ظروف محلية وإقليمية ودولية تتصاعد فيها أصوات الإسلامفوبيا وتترصد نشاطات تحركات كل جماعة دينية في العالم العربي"، وأنه "سُيكتب لها أن تلعب دوراً إيجابياً في تنمية المرأة في العالم العربي إذا بقيت على الحياد السياسي، واستمرت في تطوير نفسها وعلاقتها مع معطيات العصر وتقنياته بشكل خلّاق"46. الغريب في هذه الرؤية ربط تنمية المرأة في العالم العربي بالبعد والنأي عن السياسة، أفلا يتبادر أول ما يتبادر إلى ذهن القارئ مع مصطلح التنمية مشاركة المرأة في الحياة العامة وتمكينها سياسياً؟ كيف يكون تنموياً وإحدى وجوه التنمية، السياسة مثلاً، مغيباً وممنوعاً على المرأة؟ ثم أليس في ذلك تثبيت للاتهام الذي يؤخذ على الجماعة من أنها تركز على الحيز الفردي والرقائق والروحانيات دون الاهتمام بالشأن العام أو بقضايا التنمية كما يسميها الكاتب؟

إن طبيعة العلاقات الاجتماعية السلطوية الدينية الثلاثية في سورية في مجتمع الرجال الديني والسياسي يُسحب على مجتمع النساء كذلك الأمر، فالعلاقة النفعية والمصلحية بين التجار ورجال الأعمال وبين مخابرات نظام الأسد بواسطة المشايخ وعلماء الدين، هي العلاقة المتفق عليها بوعي أو دون وعي لمزاولة النشاطات الدينية بدعم رأسمال رجال الأعمال وبمباركة من الأجهزة الأمنية والتي تتقاطع مصالحها مع طبقة التجار وتتحالف معها في كثير من الأحيان.

وفي شهادة أسماء كفتارو على الجماعة، على سبيل المثال ومن زواية مخالفة لرأي كاتبنا السابق، نلمس تسويغاً مبطناً لهذه العلاقة الثلاثية، فمن الضرورة بمكان الاعتماد على الأقوياء (من رجال سياسة أو أصحاب النفوذ الديني أو رجال الأعمال) للوصول إلى الأهداف المرجوة، فالقبيسيات "سيدات يعشقن الدين، أصبح لديهم حب السلطة على الناس ليس أكثر، وليس حب السلطة السياسية، ليس لديهم جسور ممدودة مع أشخاص لديهم ميول سياسية، شخصياً أقول كل إنسان يحب أن يصل إلى نقطة معينة يستند فيها إلى الأقوياء، القوة في العمل مهمة جداً"47 .

ورغم أننا نوافق أنابيله بوتشر في دراستها عن تأثير الكفتاريات والقبيسيات على المجتمع السوري دينياً واقتصادياً إلا أننا لا نوافقها على تأثيرهن وانخراطهن في نشاطات فاعلة على الصعيد السياسي48 ، علاوة على أنها لم تحدد نوعية هذه النشاطات السياسية، إلا إذا كانت تعتبر أن كل

إسلام اجتماعي له امتداد وتوسع وعلاقات نفعية بين فئات المجتمع كافة هو إسلام سياسي بوجه من الوجوه!

من الممكن القول إنه لا يمكن تحميل الجماعة أكثر مما هو متاح في حيز الإمكان، فهنّ نساء ولهن جذور ومصالح كبيرة في سورية وخاصة في مدينة دمشق ولا يمكن لهنّ الجهر بأي موقف سياسي محدد، وأكبر همهنّ انصب على تربية البنات والنساء على تعاليم الدين الإسلامي، إلا أنهن في المقابل لازلن يستندن إلى الفقه الذي يحرم الخروج على الحاكم مهما فجر وطغى ما لم ينطق بكفر بواح أو يمنع تطبيق التعاليم الشرعية، ومن وجهة نظر الجماعة ينتفي الشرطان الداعيان للخروج على الحاكم أو المشاركة علناً بأي نشاط ضده، هذا إن أحسنا الظن واستنطقنا موقفهن من خلال الفقه الذي يستندن إليه القائم على فرضية هاجس الفتنة التي سيطرت على حس الفقهاء قديما وحديثا .

مع ذلك فإن طاعة الحاكم على المنشط والمكره والدعاء له على المنابر وفي الحلقات الدرسية لن يكون إلا موقفاً سياسياً بحد ذاته، والجماعة تدرك يقيناً أن النظام السوري بسماحه لها بمزاولة نشاطاتها والخروج إلى العلن كان بدافع خلق حاضنة شعبية نسائية سنية دينية، وأنه لن يجد خيراً من القبيسيات الذي يظهر سكوتها ونأيها عن الخوض في المجال العام والسياسي بشكل خاص وكأنه تعبيرٌ عن حالة رضا وقبول عن أداء الحكومة والنظام السياسي في البلاد في مقابل السماح لها بالتحرك بحرية وإن كانت لازالت تنتهج السرية في تحركاتها.

خاتمة

ترسم جماعة القبيسيات كحال الجماعات الدينية في مجتمع الرجال صورة دقيقة عن واقع التدين ومظاهره واتجاهاته ومواقفه في المجتمع السوري في ظل حزب البعث، وتقدم لنا فكرة واضحة عن كم التشوه الديني الذي طال الخطاب الديني للجماعات الدينية في بعدها عن جادة الحق وفي استكانتها لأشكال من الظلم والعنف والتجهيل لمجرد تبنيهم مبدأ عدم الخروج على الحاكم ولو كان ظالماً وموغلاً في الطغيان ومرتكباً لجرائم ضد الكرامة الإنسانية.

في المقابل، فإن جماعة القبيسات كأية جماعة دينية قد تنحرف في بعض مساراتها على طول الزمن إن لم تجرِ مراجعات دورية ووقفات نقدية وتطوير وتجديد بشكل مستمر. ونقول إنه ليس من الخطأ والمعيب الوقوف بشكل دائم مع الذات لإعادة تقييمها وتصفية ما علق فيها من شوائب وتشوهات تلحق بأية جماعة أو إيديولوجيا أو تيار بمسارها الزمني، بل من المعيب أن تظل أية جماعة متشبثة بآراءها مدعية أنها لازالت تحتفظ بنقائها وبريق مبادئها الأولى دون القيام بالمراجعات والتدقيق، مع أن ذلك حدث مع القبيسيات بشكل جزئي عندما تم إيقاف تدريس كتاب "إحياء علوم الدين" للغزالي الذي عُرف عنه احتواءه للعديد من الأحاديث الضعيفة المنسوبة إلى الرسول صلى الله عليه وسلم، وعندما ابتعدت الجماعة عن المنحى الصوفي المغرق في الفردية والاستلاب المجتمعي. ويظل الموقف السياسي منوطاً بالفقه الذي استندت إليه الجماعة وهو ما كان ليس بالإمكان تغييره أو تطويره أو الخروج عليه طالما ظل المجتمع قابعاً تحت قبضة أمنية شديدة تحالفت معه أغلب المدارس الدينية التقليدية حيناً وابتعدت أو صمتت المدارس الدينية الأخرى عن أي مشاركة في الحياة السياسية.

المراجع

1- اتسمت علاقتها مع المدرسة السلفية بالتوتر الشديد، خاصة السلفية خارج سورية حيث أُصدرت الفتاوى لتصنفها ضمن الطرق الصوفية النقشبندية المبتدعة الضالة والمخالفة للكتاب والسنة.

2- طيب تيزيني، داعيات في أوساط النفوذ والثراء، الاتحاد، 18/ 07/ 2006. ويُعد تيزيني أن القبيسيات كحركة هي بديل عن "الاتحاد النسائي" الرسمي، وأن عدم انخراطهن بالسياسة يدل على أنهن ملتزمات بالنشاط الديني الإيديولوجي وحسب.

3- نبيل الملحم، القبيسيات في سوريا بين التكفير والتبجيل والحيرة، البوابة، 16/ 09/ 2006.

4- سلام إسماعيل، جماعة الأخوات القبيسيات، سبق ذكره.

5- مثل السيدة أمل الطويل التي تركت الجماعة بعد انتساب امتد إلى 25 سنة بين طالبة ومريدة إلى آنسة ومدرسة في مدارس حكومية وخاصة، والتي أعربت لنا عن أملها في أن ينصلح حال الجماعة، ولو على المدى الطويل.

6- والكتاب فيه إجحاف كبير وهجوم عنيف، وفيه من الأفكار المسبقة الخاطئة والمنسوبة زوراً للجماعة.

7- الاقتباسات من كتاب أسامة السيد.

8- مثل تقرير ليلى الرفاعي، القبيسيات نافذة على أكبر تنظيم ديني في سوريا، الجزيرة ميدان.

9- راما الجرمقاني، نساء سوريات يعملن في الظل، 23 / 10/ 2009.

10- صلاح كفتارو، رد من صلاح الدين كفتارو على تحقيق القبيسيات، الحياة، العدد 15759، 28/ 05/ 2006.

11- محمد حبش، القبيسيات ... الملف المجهول، كلنا شركاء، 09/ 06/ 2014.

12- إبراهيم حميدي، يرتدين الحجاب الكحلي ويملكن شبكة تدريس ونفوذ واسعة، "الآنسات القبيسيات" يباشرن في سورية انخراط النساء في "الدعوة الإسلامية" ... بموافقة السلطات، صحيفة الحياة، رقم العدد: 15734، 03/ 05/ 2006.

13- أنابيله بوتشر، الإسلام الرسمي، الشبكات الإسلامية العابرة للحدود، والسياسات المحلية: سوريا أنموذجاً، معهد العالم للدراسات، 18 / 2016/09

14- راجع هذا التقرير حول الحجاب واستخدامه كأداة وظيفية من قبل النظام السوري، أحمد جاسم الحسين، الحِجاب: سلاح النظام ضد السوريين!، أورينت نت، 15/ 11/ 2014.

15- لذلك كل ما سيقال في هذه الدراسة غير مقتصر على دمشق وحدها إنما يقال على مدينة حمص أو أية مدينة أخرى وُجدت فيها الجماعة، وسننوه إلى الاختلافات بين المدن في مقامها.

16- قيل إن الجماعتين منقسمتان بشكل حاد وبينهما شقاق ما، ولكل جماعة آنساتها ومريداتها اللاتي لا يُسمح لهن الانتقال إلى الجماعة الأخرى.

17- المرجع نفسه، ص13 . وفي الأردن عُرفنّ بالطباعيات نسبة إلى فادية الطباع التي تتلمذت على يد الشيخة منيرة، وأختها في الجماعة سحر الحلبي في لبنان فأصبحت الأخوات هناك يُعرفن بالسحريات، وبنات فدوى في فلسطين وجماعة شيرين فتحي في مصر.

18- مريم الخاطر، تنظيم عقدي خطير يستهدف نساء قطر.. فانتبهوا، بوابة الشرق الإلكترونية، 13/ 02/ 2012.

19- شقيقة أحمد جبريل القومي العربي العلماني، والأمين العام للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين (القيادة العامة) والتي على علاقة وثيقة بالنظام السوري.

20- عبدالرحمن الحاج، "الأخوات القبيسيات"... قصة انبعاث أول حركة نسوية للإحياء الديني، مركز الوفاق الإنمائي للدراسات والبحوث والتدريب، 17/ 08/ 2014.

21- وعليه صدرت فتوى هيئة كبار العلماء من الرئاسة العامة للبحوث العلمية والإفتاء خاصة بجمعية نسائية في الكويت تحت تصنيف التصوف تداولتها المواقع المخالفة لجماعة القبيسيات من التيارات الإسلامية الأخرى على أنها خاصة بهن ما أدى إلى انتشار اللغط والمبالغات وإلصاق التهم والبدع غير الصحيحة والطعن في عقديتهن، بل وفي أعيانهن. فتوى رقم 16011، ج 2 ، ص 74 - 79، 18/ 05/ 1414 هـ.

22- رأي د. البوطي بمسلسل ما ملكت أيمانكم بعد انتهاء عرضه، 2010. ولم ينس الإشادة بمنهجهن في الابتعاد عن السياسة أو الأحزاب السياسية والتزامهن بتنشئة البنات تنشئة إسلامية صالحة على القيم والأخلاق الإسلامية.

23- كما أفصحت لنا أمل الطويل.

24- هو الشيخ د. محمد أبو الخير شكري في مقابلة خاصة لتقرير : القبيسيات نافذة على أكبر تنظيم ديني في سوريا، سبق ذكره.

25- كما أطلعتنا أمل وحُسم معها الجدل الدائر في منتديات الإنترنت بين نفي وإثبات هذا الكتيب، حيث أثبتت أنها قرأته مع الآنسات وكان من ضمن المواد الأساسية في بداية طريقها مع الجماعة.

26- الكتاب على موقع المكتبة الشاملة الرابط التالي.

27- والذي تركت الجماعة مدارسته كي لا يُؤخذ عليهن اعتماد كتاب مليء بالأحاديث الضعيفة.

28- والكتاب فيه تصريح بتفضيل طريقة السلف في مسائل الصفات على طريقة الأشاعرة... ويذكر بصراحة أن السحر والتمائم شرك مخرج من الإسلام، ويذكر الأدلة الكثيرة من الكتاب والسنة على وجوب قتل الساحر والساحرة، وعليه فإن الفتوى الصادرة بتكفيريهن كونهن يمارسن السحر والشعوذات ويشركن بالله من خلال التوسل والوسائط والاستغاثة بغير الله وعقيدة الحلول والاتحاد غير صحيحة وغير دقيقة شرعياً.

29- مختصر الجامع في السيرة النبوية، المقدمة، المطبعة العلمية، الطبعة الأولى، 1995. وكان كلما ألفت آنسة قبيسية كتاباً في العقيدة أو في السيرة النبوية أو في أي مبحث ديني آخر اُستبدل بكتب العلماء المشهورة التي كانت تُدرس، بصرف النظر عن إذا ما كان هذا الكتاب جيداً من الناحية العلمية أو المنهجية أم لم يكن.

30- صلاح كفتارو، الشيخ كفتارو يتحدث عن خفايا عالم "القبيسيات" في سوريا، العربية نت، 10/ 05/ 2007.

31- يقال إن الكثير من المنتسبات إلى الجماعة تتأثر علاقاتهن مع أزواجهن وآبائهن بالتوتر كون الشيخة أو الآنسة تسعى لأن تكون المسيطرة حتى في العلاقات الزوجية، بالإضافة إلى كثرة الخروج من المنزل، وتقديم أمر الجماعة على أي شيء آخر، لكن الأمر يعود إلى قوة شخصية كل طالبة أو منتسبة فمن كانت تُحسن تدبير أمورها وتوازن بين بيتها والجماعة فإنها ستحظى بمكانة معتبرة في الجماعة.

32- هذه الطريقة في اللباس جلبت الكثير من النقد بما أن "المانطو" قصير نسبياً ومخالف للحجاب الشرعي في رأي البعض، حيث يكشف "المانطو" القصير جزءاً من الساقين. ونذكر هنا أن هناك شريحة واسعة من النساء (خاصة في المدن الكبرى) يرتدين هذا النوع من الحجاب ممن لسنّ من جماعة القبيسيات.

33- القبيسيات نافذة على أكبر تنظيم ديني في سوريا، سبق ذكره.

34- الرفاعي، سبق ذكره.

35- على مبدأ "استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان"، كما صرحت أمل.

36- مؤخراً فطنت الجماعة إلى خطر مسألة العزوف عن الزواج والذي سيؤدي بالجماعة إلى الانقراض، وهذا ما يتنافى مع نظرتهن إلى مكانتهن في العالم حيث هن اللاتي اصطفاهن الله تعالى بالقيام بالدعوة ونشرها وثم تأسيس أسر وإنجاب أطفال حاملين لبذور لواء هذه الدعوة. أمل الطويل.

37- صلاح كفتارو، الشيخ كفتارو يتحدث عن خفايا عالم "القبيسيات" في سوريا، سبق ذكره.

38- حبش، القبيسيات... الملف المجهول، سبق ذكره.

39- نساء سوريات يعملن في الظل، سبق ذكره.

40- نقف متأملين لقول إحداهن من أن الجماعة "لا تغرس في نفوس الفتيات قيم حقيقة وفكر أساسية تشرح لهن أهمية الحجاب عقلًا وإقناعاً إلى جانب فرضيته الدينية"، فإن سلمنا معها أن المطلوب اتباع المنهج العقلي في الإقناع بالفرائض الدينية، وهي مسألة تقع ضمن دوائر جدلية حول إذا ما كان الالتزام بالفرائض الدينية يحتاج إلى الإقناع بالأدلة العقلية والبراهين العلمية... أم

أنه يؤخذ كله بدافع الإيمان والتسليم المطلق للإسلام! فإننا لا يمكن أن نتغاضى عن التذكير بأن ذلك المنهج لا يقتصر على جماعة القبيسيات وحدها، فكل التعليم الديني التقليدي يتبع المنهج نفسه.

41- مثل مشفى "سلامة" للنسائية والتوليد في دمشق التابع لهن.

42- القبيسيات... الملف المجهول، سبق ذكره.

43- إبراهيم حميدي، سبق ذكره. وراجع رد صلاح كفتارو على حميدي فيما جاء في تحقيقه على لسان الأول: رد من صلاح الدين كفتارو على تحقيق القبيسيات.

44- عبد الرحمن الحاج، ... قصة انبعاث أول حركة نسوية للإحياء الديني، سبق ذكره.

45- رأي الدكتور البوطي في مسلسل "ما ملكت أيمانكم".، سبق ذكره.

46- عبدالرحمن الحاج، الأخوات القبيسيات، سبق ذكره.

47- حوار مع أسماء كفتارو، أجراه سناء إبراهيم، ألف، 14/ 05/ 2010.

48- أنابيله بوتشر، الإسلام الرسمي، سبق ذكره. مثل قولها "وعن طريق هذه الحلقات المبتدئة، يمكن للطلبة أن يُطبِّقوا مبادئ الشريعة على حياتهم اليومية الشخصية والعائلية. لكن في المستويات من الحلقات العليا، قد تصبح الرسائل التي تُقدمها المعلمة ذات طابع أكثر سياسية" في إشارة إلى حلقات الدرس الديني التي تحضرها الأخوات القبيسيات.

المراجع (حسب تسلسل ورودها في الدراسة)

-طيب تيزيني، داعيات في أوساط النفوذ والثراء، الاتحاد، 18/ 07/ 2006.

-نبيل الملحم، القبيسيات في سوريا بين التكفير والتبجيل والحيرة، البوابة، 16/ 09/ 2006.

-ليلى الرفاعي، القبيسيات نافذة على أكبر تنظيم ديني في سوريا، الجزيرة ميدان.

-راما الجرمقاني، نساء سوريات يعملن في الظل، 23 / 10/ 2009.

-صلاح كفتارو، رد من صلاح الدين كفتارو على تحقيق القبيسيات، الحياة، العدد 15759، 28/ 05/ 2006.

-محمد حبش، القبيسيات ... الملف المجهول، كلنا شركاء، 09/ 06/ 2014.

-إبراهيم حميدي، يرتدين الحجاب الكحلي ويملكن شبكة تدريس ونفوذ واسعة، "الآنسات القبيسيات" يباشرن في سورية انخراط النساء في "الدعوة الإسلامية" ... بموافقة السلطات، صحيفة الحياة، رقم العدد: 15734، 03/ 05/ 2006.

-طلائع بعث نظام الأسد وطلائع الأنظمة القمعية في التاريخ، السورية نت، 25/ 03/ 2015.

-أنابيله بوتشر، الإسلام الرسمي، الشبكات الإسلامية العابرة للحدود، والسياسات المحلية: سوريا أنموذجاً، معهد العالم للدراسات، 18 / 2016/09

-أحمد جاسم الحسين، الحِجاب: سلاح النظام ضد السوريين!، أورينت نت، 15/ 11/ 2014.

-سلام إسماعيل، جماعة الأخوات القبيسيات، دراسة تحليلية لنشوء وانتشار الظاهرة وتأثيراتها على المجتمع العربي والإسلامي، مركز برق للأبحاث والدراسات، دون تاريخ نشر، ص 11.

-مريم الخاطر، تنظيم عقدي خطير يستهدف نساء قطر.. فانتبهوا، بوابة الشرق الإلكترونية، 13/ 02/ 2012.

-عبدالرحمن الحاج، "الأخوات القبيسيات"... قصة انبعاث أول حركة نسوية للإحياء الديني، مركز الوفاق الإنمائي للدراسات والبحوث والتدريب، 17/ 08/ 2014.

-هيئة كبار العلماء من الرئاسة العامة للبحوث العلمية والإفتاء، فتوى رقم 16011، ج 2 ، ص 74 - 79، 18/ 05/ 1414 هـ.

-رأي د. البوطي بمسلسل ما ملكت أيمانكم بعد انتهاء عرضه، 2010.

-مختصر الجامع في السيرة النبوية، المقدمة، المطبعة العلمية، الطبعة الأولى، 1995.

-صلاح كفتارو، الشيخ كفتارو يتحدث عن خفايا عالم "القبيسيات" في سوريا، العربية نت، 10/ 05/ 2007.

-حوار مع أسماء كفتارو، أجراه سناء إبراهيم، ألف، 14/ 05/ 2010.

-رد من صلاح الدين كفتارو على تحقيق القبيسيات.
وصلات أخرى للاستزادة:
-عفراء محمد، حركة "القبيسيات" النسوية السورية: شكوك عقائدية ومخاوف سياسية
-ماريا الشامي، قبيسيات الاسد .. الظل النسائي للإسلام المسيس
-عمر البحرة، القبيسيات- الأمهات المؤمنات ومجمع أبو النور، الحوار المتمدن، 23/ 12/ 2004.
جمعيات نسائية باطنية في سوريا باسم الإسلام، قنطرة.
"البيان" تقرع باب"القبيسيات" لبنان.
يزداد تأثير النساء في جماعة "الإخوان المسلمين" السورية، لكنهن يواجهن منافسة من جماعة القبيسيات.
حركة "القبيسيات" النسوية السورية: شكوك عقائدية ومخاوف سياسية
القبيسيات التنظيم النسائي الصوفي
القبيسيات وإثارة الجدل...دراسةٌ عن السلطة والدين
النسوية الإسلامية الجزيرة نت.
مقتطفات من فيلم نساء صوفيات.
http://superpressramamais.blogspot.com.tr/2009/10/blog-post.html
Islamic Revival in Syria Is Led by Women
http://archive.aawsat.com/details.asp?issueno=9896&article=380387#.WRBWvvmGPIU
http://www.courrierinternational.com/article/2009/10/15/l-islamisme-au-feminin
http://www.joshualandis.com/blog/the-qubaysiyat-are-feminists-by-serene-taleb-agha

رحلتي مع القبيسيات

١٨ كانون الثاني ٢٠١٧

لمى راجح

خوفاً من نشوء وانتشار تنظيماتٍ إسلامية معادية له، شجّعَ النظام السوري قيام حركات إسلامية غير سياسية، وسمَحَ لبعض رجال الدين المقربين منه، أمثال المفتي السابق الشيخ أحمد كفتارو والشيخ سعيد رمضان البوطي، بإقامة حلقات خاصة بتدريس الدين الإسلامي ضمن المعاهد الشرعية والمساجد. ومن رحم تلك الحلقات أسَّسَت منيرة القبيسي تجمعاً عُرِف باسم «القبيسيات» خلال فترة السبعينات، بدعمٍ من الشيخ كفتارو.

منذ نهاية الثمانينات ومطلع التسعينات من القرن الماضي، شهد المجتمع السوري نوعاً من المد الإسلامي المعتدل في أوساطه، حيث اكتظت المساجد بالمصليين ولا سيما يوم الجمعة، ومن فئة الشباب على وجه الخصوص، كما ازداد إقبال النساء والفتيات على الدروس والحلقات الخاصة بحفظ القرآن الكريم.

وربما كان للفساد الاقتصادي والسياسي دورٌ في تغذية التيارات الإسلامية التي توصف بالمعتدلة، بعدما قطع النظام السوري الطريق أمام أي انفتاح سياسي ولا سيما بعد محاربته لجماعة الإخوان المسلمين، ليجد الشباب فرصتهم للانخراط ضمن هذه التيارات.

كان التجمع محظوراً في سوريا، وتعرضت بعض عضواته للملاحقة والاعتقال، مثلما حدث مع الشيخة التي أشرفت على تدريسي العلوم الشرعية ضمن إحدى الحلقات، وظل الأمر كذلك حتى عام 2006؛ عندما رفع النظام السوري الحظر عنهن، شريطة أن تقام حلقاتهن ضمن ما يسمى المعاهد الشرعية في المساجد.

كما تعرضت القبيسيات لانتقادات عدة منها اتباعهن للمذهب النقشبندي1، وعقد حلقات الذكر والابتهال لله، وإنشاد الأغاني الدينية، والضرب على الدف، حيث اتهم بعض رجال الدين القبيسيات بالخروج عن مسار الدين الإسلامي الصحيح.

1. الطريقة النقشبندية: طريقة صوفية تنسب إلى مؤسسها الشيخ بهاء الدين أحمد بن محمد الشهير بـ «شاه نقشبندية»، واشتق اسمها منه، ومن ثم عُرِفَت به. وهي الطريقة الوحيدة التي تدّعي تتبع السلسلة الروحية المباشرة مع النبي محمد عليه الصلاة السلام. وقد تبنى الشيخ محمد أمين كفتارو لواء النقشبندية في دمشق، حيث قام بتأسيس نواة إصلاحية قوامها العلم الشرعي والطريقة النقشبندية في جامع أبي النور. كما قام الشيخ محمد بمهمة التربية الروحية، وتزكية النفس، واستقطب العديد من الناس. واعتبر أن التصوّفَ والتربية الروحية القرآنية وسيلةٌ لا غاية، وأنه أسلوبٌ تربوي يساعد المسلم على تزكية النفس وتطهير القلب وتقوية الإرادة.

2. كتب الشيخ أسامة السيد بحث مطولاً بعنوان «دراسة شامِلة عن التنظيم النسائي السرى الخطير لمنيرة قبيسى وأميرة جبريل وسحر حلبى وفادية الطباع وسعاد ميبر»، ونُشر هذا البحث عبر الانترنت، وتضمن تهجماً واضحاً على جماعة القبيسيات واقتباسات وأقاويل نسبت لهن. كذلك تبنى

علي بن نايف الشحود في كتابه «موسوعة الرد على المذاهب الفكرية المعاصرة» مهمة تكفير جماعة القبيسيات.

استطاعت القبيسيات التواجد داخل المجتمع الدمشقي لا سيما ضمن طبقاته الغنية، وساعدهن في ذلك الطابع الإسلامي لدى بعض الأسر، بالإضافة لانتماء القيادات النسائية ضمن التجمع للعائلات المعروفة. كما اشتهرن بافتتاح عدد من المدارس الخاصة، وكأنما ذلك أحد الطرق في استهداف الأطفال وتعليمهم أصول العقيدة الإسلامية منذ الصغر، فتمكنَّ من خلال الشيخات المنتميات للطبقات الغنية في دمشق والمنخرطات في التجمع من ترخيص عدد من المدارس، وقد بلغ تعدادها وفقاً لما كتبه الشيخ محمد حبش في مقالة بعنوان القبيسيات... الملف المجهول مائتي مدرسة في سوريا، مما عبّد الطريق أمامهن لمزيد من التوسع والانتشار.

الحلقات ملح القبيسيات

منذ أن كنتُ طفلةً أَلِفتُ مظهر بعض نساء عائلتي، وبنات منطقتي، وكذلك العديد من النساء الدمشقيات، يرتدين الحجاب الأبيض أو الأزرق الذي يُربَطُ عند الذقن بإحكام، والمانطو3 الكحلي. ولم أفكر يوماً إن كان هذا النوع من الملابس يعبّر عن حالة إيديولوجية دينية معينة، أم أنها مجرد زي نابع عن عادات بعض النساء الدمشقيات في نمط ارتدائهن للثياب. كما اعتدتُ رؤية بعض قريباتي المنتميات للقبيسيات ينشطن بنشر الدعوة الإسلامية، مستهدفات بنات العائلات الدمشقية.

3. المانطو: عبارة عن معطف طويل يغطي كامل جسم المرأة حتى كاحلها، وهو زي شامي مشهور في دمشق.

لم أكن قد تجاوزتُ السابعة عندما انضممتُ مع قريباتي إلى حلقات دينية خاصة بالفتيات الصغيرات؛ حيث ارتأت زوجة عمي أنه من صالح الأعمال طلب العلم الديني والدنيوي، ولا سيما خلال فترة العطلة الصيفية. فجمعت بنات العائلة ضمن حلقة صغيرة؛ من أجل حفظ القرآن الكريم، وترتيله، وتفسيره، بالإضافة لتعليمنا أصول الفقه، وحفظ الأحاديث النبوية من خلال كتاب رياض الصالحين4، وإقامة أنشطة أخرى منها تقديم المسرحيات التي تناسب الأطفال، وترديد الأغاني الدينية. وقد تم لاحقاً ربط هذه الحلقة بمجموعة أخرى من الحلقات، تشرف القبيسيات على إدارتها.

4. كتاب رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين: ألّفه الإمام يحيى بن شرف النووي الدمشقي، ويجمع في هذا الكتاب الأحاديث الصحيحة المروية عن الرسول محمد في جميع شؤون العقيدة والحياة، ويعرضها مرتبة في أبواب وفصول، لتكون موضوعات يسهل على القارئ العودة إليها والاستفادة منها. يضم الكتاب 1903 أحاديث مروية بسند مختصر يبدأ بالصحابي غالباً، وبالتابع نادراً، مقسمة على 372 فصلاً، وتم اعتماد الكتاب من قبل «الآنسات» ضمن الحلقات لسهولة دراسته على الطالبات، وكذلك لتضمينه شروحاً للكلمات غير واضحة المعاني.

عند التدقيق في هيكلية الحلقات، سنجد أنها تتألف من مجموعات تتولى كل شيخة إدارة إحداها، وتلقب الشيخة بـ «الخالة الكبيرة» ولها احترام كبير من قبل الطالبات وأسرهن. يأتي في مرتبة أقل منها مجموعة من المريدات، وكنا نناديهن أيضاً بـ «الخالة أو الآنسة»، ويتولين زمام قيادة الحلقات. ومن الشروط الواجب توفرها لتصبح المريدة مقربة من «الخالة الكبيرة» ومشرفة على إحدى الحلقات هو أقدميتها في الجماعة، وتمكنها من حفظ القرآن الكريم وتفسيره وتجويده، وأيضاً إلمامها بالعلوم الشرعية.

أما عن لون الحجاب الذي يضعنه؛ والذي يتدرج ما بين اللون الأبيض، والأزرق الفاتح، أو الغامق، فقد قيل إنه للتمييز بين الطالبات والمريدات حسب تراتبية مكانتهن في التجمع، حيث ترتدي المريدة

الجديدة الحجاب الأبيض، بينما تضع «الآنسة» الحجاب الأزرق الفاتح، في حين ترتدي «الخالة الكبيرة» حجاباً أزرقاً غامقاً أو أسوداً، ولكنني لاحظت أيضاً خلال تواجدي معهن أن بعضهن ترتدين الحجاب الأزرق الغامق كتعبير عن اقتناعهن بالفكر القبيسي، وفقاً لما قالته لي إحدى «الآنسات»، وذلك بغض النظر عن مكانتهن في التجمع.

جرت العادة أن تجتمع جميع الحلقات بين الحين والآخر في أحد بيوت الطالبات أو «الآنسات»، أو في إحدى المزارع في ريف دمشق؛ إما بهدف إحياء المناسبات الدينية كالموالد النبوية، والابتهال لله وإقامة الصلوات، أو بدعوى الاحتفال بالفتيات اللواتي تمكنَّ من حفظ القرآن الكريم.

كنتُ أشعرُ بالغيرة من الطالبات الحافظات للقرآن الكريم، كطفلة تتطلع لإرضاء «آنساتها» في جوٍ مشحونٍ بالتنافس بين بنات الحلقات، اللواتي يحلمن بالفوز بلقب «حفظة القرآن الكريم». ورغم محاولاتي لإنهاء أجزاء من القرآن، غير أنني لم أفلح في ذلك؛ ربما لأن استيعابي الطفولي عن مفهوم الحلقة انحصر ضمن إطار التواجد مع بنات عمومي، ولم يعدُ الأمر بالنسبة لي سوى مجرد مكان اجتمع فيه مع قريباتي، ألعب معهن من خلال الأنشطة التي أقيمت لنا.

عندما نجحتُ إلى الصف السابع كانت جميع طالبات الحلقة، بما فيهن بنات العائلة، محجبات باستثنائي؛ حيث جرت العادة أن تقوم بعض الأسر بتحجيب بناتهن عند البلوغ، تماشياً مع المعتقدات الدينية، والأعراف الاجتماعية. ومن هذا المنطلق بدأت بذور التواطؤ العائلي تنمو أمامي، كشجرة صلبة، معتقداتها راسخة بأنه حان الوقت لكي أرتدي الحجاب، ولا سيما أنني أصبحت بالغة ومحاسبة عن أعمالي.

لم أكن أملك أي قرار أو تحكم باختياراتي، ووجدتُ نفسي عام 1996، أقفُ بين يدي «الخالة الكبيرة» ضمن احتفال أقيم خصيصاً لذلك، ووضَعَت لي حينها ما تُسمى «الأمطة»، وهي عبارة عن قطعة قماش بيضاء صغيرة توضع على الرأس، وتساعد في تماسك الحجاب وتمنع انزلاقه، ومن ثم وضَعَت لي حجاباً لونه أبيض يُربَط عند الذقن.

رضختُ لأوامر الخالة، وكذلك لأوامر عائلتي، وارتديتُ الحجاب. ولكن الظروف شاءت أن أخرج عن عباءتهن وأنخرطَ في بيئات مغايرة، حيث كان لصديقات المدرسة غير المحجبات والمنحدرات من عائلات دمشقية معتدلة، تأثيرٌ على طريقة تفكيري مما دفعني إلى عدم التسليم برغبة «الخالة الكبيرة»، والابتعاد رويداً رويداً عن الحلقات الدينية، حتى انقطعت علاقتي مع الحلقة التي بدأتُ معها بعد عامٍ واحدٍ على تحجبي.

خلال المرحلة الإعدادية التحقتُ بحلقة أخرى برفقة ابنة حارتي نور؛ التي كانت تستضيف الطالبات في بيتها في حي الميدان. لم أواظب كثيراً على الحضور والتواجد معهن، مقارنةً بما كنتُ عليه خلال المرحلة الابتدائية، لأبتعد نهائياً عن ما يسمى حلقات الدين خلال المرحلة الثانوية، ومن ثم أخلع الحجاب عام 2001.

العودة إلى حضن القبيسيات

شاءت الظروف خلال المرحلة الجامعية عام 2005 أن تعرّفني صديقتي ريم على الآنسة هبة6، ابنة إحدى العائلات الميدانية المعروفة، والتي ستصبح مقربة لي، ومشرفة عليَّ لاحقاً ضمن حلقات دينية جديدة لمدة ثلاث سنوات.

لم تعد الحلقات الدينية مجرد مكان للهو واللعب مثلما كانت عليه خلال تواجدي ضمن الحلقة الأولى، فقد أصبحتُ مدركةً لجوهر العقيدة الإسلامية، ووجدتُ فيها فرصةً لأداء صلاة الجماعة، وإحياء الشعائر الدينية، كما رأيتها وسيلةً للتقرب إلى الله من خلال تكوين مزيد من الفهم عن الدين الإسلامي، وهذا ما شجعني على العودة والانخراط في الدروس الدينية.

اعتادت الخالة هبة على إقامة درسٍ واحدٍ في الأسبوع في منزلها؛ تفتتح الدرس بالترحيب ببنات الحلقة، بعدها تبدأ بالدعاء والذكر، والصلاة على النبي محمد، ومن ثم تنتقل لصلب الدرس حول أصول الفقه، أو تفسير آيات القرآن الكريم، أو سرد سيرة أحد صحابة النبي محمد.

أما بالنسبة للخالة الكبيرة فكان دورها يأتي بعد أن تنهي الخالة هبة حصتها؛ لتتولى بدورها زمام الحديث عن أحد الأمور الفقهية، أو تستكمل ما بدأتُه الخالة هبة، وكذلك تقديم النصح والموعظة للبنات. وتختتم الجلسة كما بدأت بالتضرع لله والصلاة على النبي محمد، وأحياناً يتم إنشاد بعض الأغاني الدينية والضرب على الدف.

كان نمط العلاقات الاجتماعية الذي ساد بين بنات الحلقات ملفتاً للنظر، ولا سيما تلك التي تشرف عليها الخالة هبة؛ فالعلاقات الاجتماعية قامت على مبدأ الأخوية، أي أنهن جميعاً «أخوات في دين الله»، ومن واجبهن الديني أن يعاملن بعضهن باحترام ويدعمن بعضهن بعضاً. انعكس هذا النمط الاجتماعي أيضاً بين «الآنسات» والطالبات، حيث تمكنت الخالة هبة من بناء علاقات قوية مع الطالبات وأُسَرِهن من خلال زيارتهن والاطمئنان على أحوالهن، بالإضافة لمحاولتها الاستماع إلى مشاكلهن ومساعدتهن في حلّها.

كثيراً ما تم الحديث عن الطاعة العمياء للخالة الكبيرة، وهنا لا أستطيع أن أؤكد أنها عمياء بقدر ما كانت طاعةً تنم عن احترام المكانة التي تتمتع بها، مما جعل كلامها موضع ثقة لدى الطالبات، فالكثيرات منهن اعتدن على مشاورتها ومناقشتها في أمورهن الشخصية كالزواج والدراسة، إيماناً منهن بخبرتها الحياتية والدينية. هذه المكانة التي تتمتع بها الخالة الكبيرة جاءت نتيجة أقدميتها في التجمع، وتحصيلها العلمي والديني، وتقدمها في العمر.

غير أن ما أثار دهشتي هو اعتقاد الطالبات بمقدرات «الخالة الكبيرة» الروحية؛ فما زلتُ أذكرُ كلام إحداهن عندما قالت لي: «الخالة تستطيع قراءة أفكارنا...»، وحذرتني من تحدثي في سري عنها، لأنها ستسمع ما أقول، والغريب في الأمر أن باقي الطالبات أكّدنَ كلامها.

وكما اعتقدت الطالبات أن الله كشف الغيب عن «الخالة الكبيرة»؛ فقد اعتدن أن يشاورنها علّها ترشدهن لما سوف يأتي في الامتحانات النصفية والنهائية، حيث تقوم بإمساك المقررات المدرسية والجامعية، ومن ثم تغمض عينها وتتمتم بعض الآيات، لتفتح بعد ذلك تلك المقررات، وتحدد الفقرات التي سوف تأتي الأسئلة منها. حاولتُ لاحقاً مناقشة «الخالة الكبيرة» حول هذه المعتقدات التي وجدتها غريبة، ولكنني لم أجرؤ خوفاً من أن تغضب مني.

اليوم يزخر عالم التواصل الاجتماعي بصفحات و«فيديوهات» تتضمن معلومات غير صحيحة عن القبيسيات، من قبيل أن الطالبات يقبلن أقدام «الخالة الكبيرة»، ويتم إجبارهن على التذلل لها، كذلك ما قيل عن «الآنسات» من أنهن تمارسن السحر والشعوذة، وتعزفن عن الزواج، ولا تستقطبن سوى الفتيات الجميلات والنبيلات... إلخ. هذه الإشاعات تروّج أن المريدات والطالبات مسلوبات

الإرادة، وجاهلات؛ وعلى العكس من ذلك فقد كانت بنات الحلقات طالبات و«آنسات» متعلمات ومثقفات وعاملات في الشأن العام، ومنهن متزوجات وذوات مكانة اجتماعية.

خلال شهر رمضان عام 2008 كنتُ مع الطالبات في بيت الخالة هبة لأداء صلاة التراويح، وبعدما انتهينا من الصلاة، أفضت «الخالة الكبيرة» لي عن نيتها تحجيبي؛ أخبرتُها أنني أحتاج بعض الوقت، غير أنها أصرّت على موقفها، معلنةً لبنات الحلقة وأُسَرِهن، ويقدر عددهن بما لا يقل عن 60 امرأةً، عن رغبتها تلك، ليتجمعن حولي ويضعن لي «الأمطة» والحجاب الأبيض. حينها تذكرت المرة الأولى التي تم تحجيبي بها، وكم كانت المرة الأولى شبيهة بالمرة الثانية.

عدتُ إلى المنزل وقررتُ ألا أخضع لرغبة «الخالة الكبيرة»، غير أن العصيان لإرادتها كان معناه خروجي من الحلقة. ومع ذلك رفضت أن أضع الحجاب فقط لأنها ارتأت ذلك، ما اضطرني إلى الخروج من الحلقة، لتكون هذه الحادثة هي الأخيرة بيني وبين القبيسيات.

القبيسيات يتأرجحن بين حبال الدين والسياسة

بين الحين والآخر أقرأ تعليقات الناس وآراءهم عبر صفحات التواصل الاجتماعي، حول موقفهم من القبيسيات؛ وتحديداً بعد أن ظهرن عبر وسائل إعلام النظام السوري وهنَّ يجتمعن مع بشار الأسد ووزير أوقافه عام 2012.

منذ ذلك الوقت اعتلى البعض منبر الهجوم على القبيسيات، بينما تبنى البعض الآخر موقف الدفاع عنهن. وما بين هذا وذاك كثرت الشائعات عنهن، ولفَّ الغموض أهدافهن؛ وخاصةً بعد أن تعمد النظام السوري إظهارهن وكأنهن المدافعات عنه، والساكتات عن إجرامه بحق المدنيين. وكثرت التساؤلات حول ما إذا كان لهنَّ أي موقف سياسي؟ أم أنهن مجرد تيار ديني لا شأن له بالسياسية؟ كما نشر إعلام النظام السوري مقطعاً آخر للقبيسيات عام 2014، وهنَّ يعلنَّ تحت قبة المسجد الأموي في دمشق ولاءهن لبشار الأسد وتجديدهن البيعة له.

طوال فترة تواجدي مع القبيسيات، حرصنَ على أن تقام حلقات الذكر في أحد البيوت وبشكل سري خوفاً من الملاحقة الأمنية، حيث كان محظوراً عليهن التجمع في العلن. وكثيراً ما توارينا خلف الرموز عندما كنا نتحدث عبر الهاتف بهدف تحديد مكان ووقت انعقاد الحلقة، فما الذي دفع بالقبيسيات إلى إعلان التأييد للنظام السوري لاحقاً؟

حتى اليوم لا أستطيعُ أن أتخذ موقفاً واضحاً من جماعة القبيسيات، رغم ما أظهره إعلام النظام السوري عن تأييدهن له، ولكن لا بد من التوضيح أن كثيراً من النساء يرتدين الحجاب الأبيض والمانطو الكحلي دون أن يكن منتميات لجماعة القبيسيات، وبالتالي فإننا لا نستطيع أن نعمم ونقول إن جميع اللواتي ظهرن في الفيديوهات من القبيسيات مثلما روّجَ بعض الناس.

من جهة أخرى، ووفقاً لما قالته معاونة وزير الأوقاف سلمى عياش، فإن النظام السوري في عهد بشار الأسد «نقل العمل الديني النسائي من البيوت حيث الظلام والضبابية، إلى المساجد حيث النور والضبط»، ولربما قدّمت جماعة القبيسيات بعض التنازلات في سبيل العمل العلني، بعدما عملن لسنوات سراً. وسلمى عياش هي أول امرأة من الداعيات يتم تعيينها في منصب معاون وزير الأوقاف في سوريا، وذلك في ربيع عام 2014. كما أنه توجد بينهن مواليات للنظام السوري، منهن: خلود خادم سروجي، سوسن فلاحة، وأميرة جبريل، اللواتي قد يؤثرن على قرارات التجمع.

أيضاً لا بد من التطرق لتأثير العوامل الاقتصادية على التجمع، فعلى الرغم من أنه بات يستقطب جميع الفئات الاقتصادية، ولم يعد محصوراً ضمن الطبقة الغنية كما كان سابقاً، غير أنه ما زال مرتبطاً بعلاقات قوية مع التجار وأصحاب رؤوس الأموال في دمشق، حيث يقوم العديد من التجار بالتبرع للتجمع كزكاة أو صدقة، أو من خلال نسائهم وبناتهم المنخرطات في التجمع، وهؤلاء التجار تربطهم علاقات قوية مع النظام السوري مما سينعكس حتماً على موقف القبيسيات.

حتى اليوم لم يصدر أي تصريح رسمي من قبل القيادات في تجمع القبيسيات عن موقفهن مما يحدث في سوريا؛ وكأنهن لا يردن الانحياز لأي طرف سياسي، ويفضلن العمل في نشر الدعوة الإسلامية فقط. غير أن النظام السوري لم يتوانَ عن ترويج أنه مدعومٌ من قبل القبيسيات، ليوصل إلى العالم رسالة مفادها أنه الراعي للحركات الإسلامية الأقرب للاعتدال وأهل السنة في دمشق.

في النهاية، كما توجد قبيسيات مؤيدات للنظام السوري، توجد بالمقابل أخريات معاديات له، حيث لم ينجُ التجمع من الانشقاق والتفرقة في الآراء، كما لم يسلم من أن يكون جزءاً من لعبة النظام السوري السياسية.

ثماني سنوات مضت منذ أن غادرتُ القبيسيات، مرّت كما لو أنني ما زلت معهن، فبين الحين والآخر أسترجعُ أجواء الدروس والرحلات التي قضيتها مع بنات الحلقة، وكلام «الخالة الكبيرة» عندما كانت تمازحني في كل درس وتقول: «تعي قعدي جنبي... لا تبعدي عني...».

وعلى الرغم من تعرض القبيسيات لكثير من الأقاويل، فإنني لستُ بصدد الدفاع أو الهجوم عليهن، حتى ولو اختلفتُ معهن، فالاختلاف بالرأي لا يفسد للود قضية كما يقال، إذ أقدّر العلوم الدينية التي تلقيتها على أيديهن، والسنوات التي قضيتها مع «آنساتي» والطالبات.

حاولتُ منذ فترة أن أطمئن على أحوال «الخالة الكبيرة» والخالة هبة، وقد وردتني أنباء أنهن ما زلن يعشنَ في دمشق، ويعملنَ في نشر الدعوة الإسلامية، غير أنني لم أفلح في الاطمئنان على بنات الحلقة رغم محاولاتي المتكررة لمعرفة أحوالهن.

"القُبيسيّات" .. الجذور الفكريّة والمواقف السُّلوكيّة

الباحث محمد خير موسى - منشور في الجزيرة مُباشَر

حارَ النّاسُ في "القبيسيّات"، توصيفًا وتقييمًا؛ فهل هنّ حركةٌ دينيّة نسويّة، أم جماعةٌ دعويّة، أم تنظيمٌ سرّي، أم كيانٌ مغلق، أم ولادةٌ طبيعيّةٌ لطبقة اجتماعيّة جديدةٍ تفرضها حركة تدافعُ المجتمعات؟!

وكأيّ ناشئٍ في الظلّ متواريًا عن الأنظار؛ ينسجُ النّاسُ حولَه الحكايات والأساطير، ويستحضرونَ المؤامرةَ ومكر الأعداء؛ غدا النّاس في الحديث عن القبيسيّات يخلطون القليل الواقعي بالكثيرِ المُتَخيَّل.

وهنا تغدو الحاجةُ مُلحّةً إلى دراسة شاملةٍ معمّقةٍ تنحاز للحقيقة بعيدًا عن الأحكام المتعجّلة، غير خاضعةٍ لعينِ الرّضا الكليلة عن كلّ عيبٍ ولا لعين السُّخط التي لا تبدي إلّا المَساويا.

الآنسة منيرة .. البدايةُ من هنا.

منيرة قبيسي؛ الفلسطينيّةُ الدّمشقيّة، كان والدُها يتنقّلُ بين فلسطين وحوران تاجرًا؛ غير أنّ استقرارَه وبعض إخوانه كان في دمشق مع بدايات القرن الماضي.

وفي دمشق رزق عشرة من الأبناء؛ ستّة ذكورٍ وأربع بنات منهنّ منيرة التي ولدت عام 1933م

نشأ الأبناء في بيئة علم وتجارة، فكانوا كفاءاتٍ علميّةً وتجّارًا على نهج والدهم، فمنهم على سبيل المثال د. محمّد بهجت قبيسي المولود عام 1940م ويشغل موقع نائب رئيس اتّحاد المؤرّخين العرب وله عشرات المؤلّفات في التّاريخ والآثار.

اللّافتُ في الأمر كان إرسال الأب ابنته منيرة إلى مدرسة حكوميّة في الوقت الذي كان فيه أبناء الطبقة المتديّنة يرفضون إرسال أبنائهم ذكورًا وإناثًا إليها ويرسلونهم إلى المدارس الشّرعيّة في زمنٍ كان صراع الهويّات في المجتمع السّوريّ صريحًا وواضحًا.

دخلت منيرة بعد ذلك كليّة العلوم في جامعة دمشق في بيئةٍ كان التّعليم الجامعيّ عزيزًا مضنونًا به على الذّكور فكيف على الإناث؟! لتبدأ عقب تخرّجها التّدريس في حيّ المهاجرين ممّا ساهم في وصولها إلى شرائح مجتمعيّة عريضة.

في رحاب "كفتارو"

كان جامع أبي النّور المعقل الرّئيس للطّريقة النقشبنديّة حيث يمارس الشّيخ أحمد كفتارو نشاطه قريبًا من محلّ سكنى وتدريس الشّابّة منيرة، وكان أحد أعمامها قريبًا من الشّيخ كفتارو ففتح لها الطّريق لالتزام دروسه وتلقّي التربيّة على يديه.

أعجبت منيرة بالشّيخ أحمد وهو بدوره أولاها عنايةً خاصّة فكان من الطّبيعيّ أن تثور نوازع الحسد عند قريناتِها لما يرين من تميّز لافت فيها.

غير أنّ لحظة المفاصلة بينها وبين جماعة كفتارو بدأت حين غدت تلميذتها التي تصغرها بزمن غير يسير تزاحمها على الصّدارة، كانت هذه التّلميذة "وفاء" بنت الشّيخ أحمد كفتارو، وكانَ هذا كافيًا لترى نفسها الأحقّ بصدارة عمل النّساء الدّعوي في الجماعة ولو كان المنافسُ لها هو أنها آنسة.

انسحبت الآنسة منيرة من جماعة كفتارو دون أن تدخل أيّة معركةٍ معهم، بل حرصت على بقاء الصّلة الإيجابيّة بالشّيخ كفتارو وعموم الجماعة حتّى حين.

مشاربُ جديدة

تحوّلت الآنسة منيرة لحضور مجالس الشّيخ عبد الكريم الرّفاعي الذي تُنسب له النّهضة المسجديّة في دمشق في القرن الماضي، وتوطّدت علاقتها مع "جماعة زيد" التّابعة له.

وخلال هذه الفترة التحقت الآنسة منيرة بكليّة الشّريعة في جامعة دمشق، وهناك نهلت العلم من العديد من العلماء الأكاديميين المنحدرين من مشارب فكريّة متعدّدة.

واحتكّت عن قرب بالإخوان المسلمين الذين كان علماؤهم في كليّة الشّريعة وأبرزهم د. مصطفى السّباعي ود. محمّد المبارك، وكذلك الأستاذ عصام العطّار الذي كان خطيب مسجد الجامعة المتربّع في حديقة كليّة الشّريعة.

أثرُ تعدُّد المشارب

إنَّ تعدُّد المشارب الفكريّة وتنوّعها ساهم في تشكيل الآنسة منيرة فكريًّا وتربويًّا بطريقة انعكست على منهجها في العمل الدّعوي.

فهي ذات مشربٍ "صوفيّ طُرُقيّ" بانتمائها المؤقّت لجماعة كفتارو

ومشرب "صوفيّ علميّ" بالتزامها مجالس الشّيخ عبد الكريم الرّفاعيّ

ومشرب "أكاديميّ حركيّ" بدراستها في كليّة الشّريعة.

وبناءً على ذلك يمكننا التّأكيد على أنَّ المقولة التي تردّدها غالبيّة الدّراسات والمقالات بأنَّ "القبيسيّات" خرجن من رحم جماعة كفتارو؛ غير صحيحة البتّة.

وكذلك فإنَّ القول بأنَّ القبيسيّات امتدادٌ لجماعة زيد أو انعكاسٌ لفكر جماعة الإخوان المسلمين أيضًا قول غير صحيحٍ على الإطلاق.

الظّروف المحيطة بالنَّشأة

مع انقلاب حزب البعث في ستينيات القرن الماضي في سوريا؛ بدأت تتبلور مدارس العمل الدّعوي وتزيد من نشاطها على وقع استشعار تهديد وجوديّ إذ اقتنع العلماء بأنّ حزب البعث يهدف إلى سلخ المجتمع عن هويّته وانتمائه الإسلاميّ.

كانت معاقل العمل الدّعوي والإسلاميّ الرّئيسة في دمشق هي جماعة زيد التّابعة للشيخ عبد الكريم الرّفاعي، وجماعة الميدان التّابعة للشّيخ حسن حبنَّكة وجماعة الفتح التّابعة للشّيخ صالح فرفور وجماعة الشّيخ أحمد كفتارو وجماعة الإخوان المسلمين.

حرصت الآنسة منيرة على الصّلة الجيّدة مع هذه المدارس وغيرها وعدم إحداث أيّ صدام مع أيّة جماعة، وهذا يؤكّد امتلاكها مؤهّلات قياديّة جعلتها قادرة على إحداث تأثيرٍ في المجتمع.

وهكذا بدأت الآنسة منيرة تنشط بشكلٍ فاعلٍ في فضاء المجتمع النسائيّ بحركة دائبةٍ ساعدها في ذلك رفضها الزّواج وعدم إثقالها بأيّة ارتباطات معيقة.

كما ساعدها بشكلٍ كبيرٍ وجود الفراغ الذي لم يملأه غيرها في الواقع النّسويّ ممّا ساهم في الإقبال الكبير عليها كونها تتصدّى لمحاولات محو الهويّة في واقع المرأة المسلمة في سوريا.

وهكذا بدأت تتشكّل ملامح جماعةٍ جديدةٍ في دمشق متخصّصة بالدّعوة في الوسط النّسائيّ وتلقى دعمًا من مختلف الجماعات الفاعلة، ولها منهجها الخاصّ وآليّات عملها المختلفة.
الانتشار والتّسميات

بدأت الدّعوة القبيسيّة تنتشر ببطء في بعض المحافظات السّوريّة وبقيت حلب عصيّةً على الاختراق القبيسيّ بسبب سطوة الكيانات الصّوفيّة وإحكام قبضتها على المشهد.

و"القبيسيّات" هو الاسم الذي تعارف النّاس على إطلاقه عليهنّ وهو نسبة إلى الآنسة المؤسِّسة منيرة قبيسي.

غير أنَّ عموم القبيسيّات يرفضن هذه التسمية، ويؤكّدن في كلّ محفل على تسمية "الدّعوة" للدلالة عليهنّ فهنّ بنات "الدّعوة" وأخوات "الدّعوة".

وتنتشرُ القبيسيّات في عددٍ من الدّول بأسماء مختلفة وهذا لا يغيّر من حقيقة انتمائهنّ

ففي لبنان كان وصول القبيسيّات على يدي أميرة جبريل وهي فلسطينيّة تقيم في دمشق وشقيقة أحمد جبريل قائد الجبهة الشّعبيّة لتحرير فلسطين "القيادة العامّة" الذي يدين بالولاء المطلق للأسد الأب والابن.

غير أنّ أميرة جبريل انسحبت من المشهد وأخلَت السّاحة للدّاعية اللبنانيّة سحر حلبي لتتصدّر المشهد القبيسي في لبنان، وأصبحت القبيسيّات في لبنان ينسبن لها ويطلق عليهنّ "السّحريّات"

وإلى الأردن نقلت الدّاعية الدّمشقيّة "فادية الطّبّاع" الدّعوة القبيسيّة، فصار يطلق عليهنّ في الأردن "الطّبّاعيّات"

أمّا الكويت فجاءتها أميرة جبريل عقب مغادرتها لبنان لتكون لها اليد الطّولى في نقل نشاط القبيسيّات؛ حيثُ أسَّست "جمعيّة بيادر السّلام النّسائيّة" التي تعدّ المظلّة التي تعمل القبيسيّات تحتها ويطلق عليهنّ في الكويت "بنات البيادر"

كما انتشر نشاط القبيسيّات فوصل فلسطين ومصر وكندا والولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا، ومع موجات اللجوء الجديدة بدأ الانتشار في تركيا والدّول الاسكندنافيّة.

ورغم هذا الانتشار الواسع إلّا أنّ العمل القبيسيّ ما يزال ينتمي للمنهجيّة الدّعويّة والتربويّة والسّلوكيّة التي أرست دعائمها الآنسة منيرة قبيسي.

ولكن ما هي منهجيّة التّأثير وآليّات الاستقطاب التي تتبعها القبيسيّات؟ تولدُ أيّةُ جماعةٍ وعينُها على الأتباع؛ فهم عنوان وجودها الحقيقيّ ومقياسُ تأثيرها ومؤشّرُ إنجازِها.

والجماعات الإسلاميّة تتشابه في آليّات الاستقطاب؛ والقبيسيّات اللّواتي انتشرن انتشارًا واسعًا يفرضن علينا سبر أغوار منهجهنّ المتّبع في الاستقطاب لتكتمل الصورة.

إنَّ أيّة جماعة تطمحُ أن تكون رقمًا صعبًا، فلذا تحدّد نوعيّة الأتباع، وعينها على جيوب أهل الخير فالمال هو روح المشاريع، ويكون همّها تأمين الحماية لوجودها ومنتسبيها؛ فالحماية هي العمود الفقريّ الذي يتيح لأيّة جماعة الوقوف على قدميها، والقبيسيّات لم يخرجن عن هذا الإطار العام.

عليكم بالنّخبة المثقّفة

لا تخطئ عين النّاظر بأنَّ دعوة القبيسيّات قامت بالدّرجة الأولى على استقطاب الفتيات الجامعيّات.

فقد ركّزت الدّعوة على استهداف الطّالبات والخرّيجات الجامعيّات، ممّا ساهم في طبع الجماعة بطابع العلم والفكر والثّقافة، وجعلها في التّصوّر الذّهني جماعةً نخبويّة، وقد أسهم ذلك في إعطاء موثوقيّة في المحيط الاجتماعي فكان عامل جذب إضافيّ.

وهذا الاستهدافُ النوعيّ لشريحة الجامعيّات كانت له إيجابيّات كبيرة على سمعة الجماعة ونظرة المجتمع لها؛ غير أنّه انطوى في الوقت ذاته على سلبيّات عدّة من أخطرها بروز شعورٍ واسعٍ بالنّخبويّة والأفضليّة أدّى إلى استعلاء بنات الجماعة على غيرهنّ من المتديّنات الأخريات من منتسبات الطّرق الصّوفيّة أو منتسبات حلقات المشايخ الآخرين،كما أدّى إلى حدوث فجوة اجتماعيّة بين القبيسيّات وشرائح المجتمع من غير المتعلّمات.

هل اقتصرت دعوة القبيسيّات على الطّبقة الثّريّة وبنات المسؤولين؟!

يزدادُ الانطباع بأنَّ القبيسيّات اقتصرن في دعوتهنّ على الطّبقة الثّريّة، وهذا الانطباع له ما يبرّره، لكن التّمحيص والتّدقيق يجعلنا نعاينُ بأنّ القبيسيّات استهدفن الشّرائح الاجتماعيّة المختلفة من ثريّات وفقيرات، ومن بنات الرّيف وبنات المدينة بدعوتهنّ، وإنَّ أكثر مرتادات الحلقات هنّ من بنات الطبقة المتوسّطة ماديًّا.

ولكنّ كلّ هذا لا ينفي مطلقًا بأنَّ الطبقة الثريّة كانت في عين الاستهداف القبيسيّ، وهذا هو حال عموم الجماعات التي تريد أن تستمرّ وتبقى فهي تبحث عن تمويلها عند أهل المال والتّجارة.

وإنَّ أهمّ أسباب تشكّل الانطباع عن القبيسيّات بأنّهنّ دعوة خاصّة بالأثرياء أمران:

الأوّل: كون مؤسِّسة الجماعة والغالبيّة العظمى من آنسات الطّبقة الأولى هنّ من الثّريّات.

فالآنسة منيرة قبيسي تقيم الآنَ في حي الرّوضة الدّمشقيّ، وهو حيّ معروف بالثّراء الكبير لساكنيه.

ومن هؤلاء الآنسات الثّريّات من رموز الجماعة على سبيل المثال؛ الآنسة سميرة الزّايد صاحبة مؤلّفات السّيرة النبويّة، والآنسة خيريّة جحا المعروفة باسم الآنسة خير، والآنسة نُهَيدة طرقجي، والآنسة رفيدة كزبري، وكذلك كانت أشهر آنسات القبيسيّات في السّعوديّة الآنسة رجاء قلاجو أم إبراهيم رحمها الله مشهورة بثرائها.

الثّاني: استقطاب عدد كبيرٍ من زوجات الأثرياء وبناتهم، وكذلك بنات المسؤولين ذوي المناصب في الدّولة؛ ومن هؤلاء بنات محمود الأبرش رئيس مجلس الشّعب السّوري السّابق ليكنّ طالبات في الحلقات، ووجودهنّ كان سببًا في تحقيق دعم مالي للجماعة واستجلاب هامشٍ من الأمان.

والحرص على كسب هذه الشّريحة انعكس سلوكًا غير متوازن عندَ عددٍ من الآنسات من خلال التّمييز بين الطّالبات داخل الحلقة بناء على الوضع الماديّ والحالة الاجتماعيّة ممّا تسبّب بحساسيّات كبيرة طفا العديدُ منها على السّطح.

"الزّيجات" السّلاحُ العابرُ للجماعات

من أهمّ الوسائل التي استثمرتها القبيسيّات في نشر الدّعوة وحشد الأصوات المنافحة عنها واستجلاب التّمويل والدّعم الماليّ هو الزّواج الذي كان يجمع بين القبيسيّات سواء كنّ آنساتٍ أو طالبات مع كبار الدّعاة وقادة العمل الإسلاميّ والأثرياء والتّجّار.

والقبيسيّات عمومًا من الشّخصيّات الجاذبة للزّواج عند الشريحة المتديّنة؛ فهنّ يجمعن بين متانة الالتزام، وحسن السّمت الظّاهريّ في الحجاب والمانطو، والثّقافة الجامعيّة.

فمن العلماء الكبار الذين تزوجوا منهنّ الدّكتور "محمّد سعيد رمضان البوطي" إذ كانت زوجته الثّانية "أميرة العرجا" من القبيسيّات، وقد تعلّق بها تعلُّقًا شديدًا ورثاها بمقال يفيض عذوبةً وألمًا عنونَه باسمها "أميرة" ونشره في كتابه " من الفكر والقلب".

وكذلك المستشار الشّيخ "فيصل مولوي" أبرز قيادات الإخوان المسلمين في لبنان ومن أبرز علماء العالم الإسلاميّ كانت زوجته من القبيسيّات السّحريّات.

ومن قادة العمل الإسلامي الكبار الذين تزوجوا من قبيسيّات القيادي المصري الأستاذ "يوسف ندا" أحد أبرز رموز جماعة الإخوان المسلمين وزوجته من الآنسات القبيسيّات الدّمشقيّات واسمها "آمال الشّيشكلي" وهي شقيقة الآنسة "دلال الشّيشكلي" التي تعدّ أهمّ آنسات القبيسيّات وقد توفيت قبل الثّورة السّوريّة بعمر أربعة وخمسين عامًا، ودلال وآمال هما ابنتا أخ أديب الشيشكلي الرّئيس السّوري السّابق.

ومن كبار التّجّار والأثرياء الذين تزوجوا من آنسات الطّبقة الأولى في القبيسيّات "هيثم السّيوفي" الذي تزوّج من الآنسة "نُهَيدة طرقجي"، وأمّا أختها "رصينَة طرقجي" فهي زوجة الدّكتور "إبراهيم الهوّاري" الذي توفّي في "آخن" في ألمانيا عام 2015م وهو من أبرز قيادات العمل الإسلامي المقرّبين جدًّا من الأستاذ عصام العطّار.

هذه "الزّيجات" حقّقت عبورًا قويًّا للقبيسيّات إلى الفضاءات الإسلاميّة الأخرى، كما أنّها تعلِّلُ أحد أسباب التّعامل الإيجابيّ من كثيرٍ من أبناء الجماعات الإسلاميّة مع القبيسيّات.

ومما تجدرُ ملاحظته بأنَّ غالبيّة القبيسيّات المتزوّجات من علماء أو مفكّرين أو قادرة رأي وعمل إسلاميّ لم يتغيرن أو يتأثر انتماؤهنّ بالمحيط الأسريّ الجديد، بل كنّ هنّ المؤثّرات تأثيرًا يصبّ في نهاية المطاف في خدمة الجماعة.

الهبات والهدايا

القبيسيّات لسنَ متفرّدات في انتهاج هذه الآليّة في الاستقطاب التي يستخدمها الجميع مسلمين وغير مسلمين، ولكنّ الواقع الذي عاشته القبيسيّات في بيئة خاضعةٍ للسّطوة الأمنيّة من جهة، وفي خضمّ انتشارٍ واسع للمدارس والتيّارات والجماعات المشيخيّة جعلهنّ يفعّلن هذه الآليّة بطريقة كبيرة.

فكانت تُستخدمُ الهدايا حيث يمكن ردّ أي استهداف لهنّ من الجماعات المشيخيّة أو الجهات الرّسميّة.

كما كانت تقدَّم للشخصيّات المؤثّرة لتكون داعمًا لهنّ، ومثال ذلك د. محمّد سعيد رمضان البوطي الذي أهدته الآنسة منيرة قبيسي بيتًا في حي ركن الدّين الدّمشقي رغم أنّه كان لا يقبل أيّة هدايا من المسؤولين الرّسميّين.

وممّا تميّزت به القبيسيّات تعميم ثقافة الإهداء داخل الجماعة؛ فكانت الهدايا تقدَّم للطالبات على نطاق واسع وفي مختلف مناسباتهنّ الشّخصيّة والاجتماعيّة مهما كانت هذه المناسبات بسيطة.

الانخراط في الوظائف الحكوميّة

كانت من الوصايا التي تشدّد عليها الآنسة منيرة ومن حولها من الآنسات هي الطلب من الخرّيجات الجامعيّات الانخراط في الوظائف الحكوميّة. لا سيما سلك التّعليم الذي كان يحظى باهتمام غير مسبوق من الجماعة.

وعندما كانت تعبّر إحداهنّ عن رغبتها بالعمل الخاص أو في شركة غير حكوميّة يشدّدن عليها بضرورة وأهميّة العمل في مؤسسات الدّولة.

وهكذا نرى بأنّ القبيسيّات انتهجن في الاستقطاب استهداف الشرائحَ النّوعيّة، والشخصيّات المفصليّة، والأصوات المؤثّرة، من أجل تأمين أرضية تنطلق من خلالها دعوتهنّ باتّجاه النساء في المجتمع وهي محاطة بالحماية ومرتكزة على الدعم المالي والمعنوي.

وبعدَ هذا، هل القبيسيّات "تنظيم" أم مجرّد جماعة دعوية، وما قصّة ألوان الحجاب وما دلالتها، وماذا عن مأسسة الدّعوة القبيسيّة؟! في المجتمعات المسكونةِ بالخوف تنمو الشّائعات كما تنمو البثور في جسد المريض المنهك.

وهكذا ثارت الشّائعات الكثيرة في المجتمع حول القبيسيّات بوصفهنّ "تنظيمًا سرّيًّا"

إنَّ المتفحّصَ للجماعة يعلم بأنّه ليست لديها هيكليّة تنظيميّة بالمعنى المتعارف عليه؛ فليس لديها لوائح داخليّة أو نظام أساسيّ، ولا تخضع لآليّات واضحة في التّصعيد القيادي أو التّدرّج في المراتب.

ولكنّ هذا لا ينفي وجود هيكليّة تحكم عمل الجماعة ضمنت لها الحياة والاستمرار والانتشار وعدم الذّوبان.

على أنّ هذه الهيكليّة تغدو من القضايا التي تعرفها بنات الجماعة بالتّسريب الهادئ والتّعميم المتعارف دون أيّ تصريحٍ بها أو جرأة على السّؤال عنها.

الرّتَبُ الصّامتة

تنقسم القبيسيّات إلى خمس:

الآنسة " الحجّة"

فإن أطلق هذان الوصفان دون اقترانهما باسم محدّد فإنّه لا يرادُ بهما غير الآنسة منيرة قبيسي.

وهي رتبةٌ وحدها كحال الجماعات الدّعويّة في سوريا، حيث يكون شيخ الجماعة هو المرجع الأكبر الذي لا يقطَع أمرٌ دونه.

الآنسات الكبيرات

ويمكن أن نطلق عليهنّ مجلس قيادة الجماعة، وهنّ المقرّبات جدًّا من الآنسة منيرة ويلتقينها دوريًّا للبحث في شؤون الجماعة واتّخاذ القرارات اللازمة لها.

وهؤلاء مع الآنسة منيرة دون غيرهنّ يرتدين الحجاب الأسود فيعرفنَ به.

الآنسات المشرفات

وهنّ آنسات الحلقات ومدرّسات المواد الاختصاصيّة، يلتقين بشكل دوري لتقييم عمل الحلقات، ويرتدين الحجاب "الكحلي"

طالبات الحلقات الخاصّة

وهنّ اللواتي دخلن في جسم الجماعة بعد انتظامهنّ في حلقات خاصّة تؤهّلهنّ ليصبحنَ واعظات ومعلّمات القرآن بناء على معايير آنساتهنّ، ويرتدين الحجاب "البترولي؛ البحري" الذي بدأ ينحسر ليغدو الحجاب الأبيض هو الغالب عليهنّ

طالبات الحلقات المفتوحة

وهؤلاء الطالبات اللواتي يحضرن الدّروس العامّة وليس لهنّ حلقة خاصّة بهنّ، ويرتدين الحجاب "الأبيض"

وهذا التّقسيم يقودنا بالضّرورة إلى الحديث عن نظام الحلقات الذي تقوم عليه هيكليّة الجماعة.
الحلقات ونظام "التّرفيع"

تنقسم الحلقات إلى أربعة أقسام، وهي:

الحلقة المفتوحة: ويطلق عليها "الدّرس العام" وهي حلقات استيعابيّة استقطابيّة، يتم من خلالها اختيار من يدخلن في إطار الجماعة فينتقلن إلى الحلقة الثّانية.

الحلقة الخاصّة الأولى: وهي حلقات تضمّ بنات الجماعة، وتنعقد بشكل أسبوعي تُدرّس فيها مناهج شرعية وتربويّة، ويتمّ التّرفيع منها بناء على اجتياز الاختبارات وتزكية الآنسة المشرفة.

الحلقة الخاصّة الثّانية: وتضمّ من تمّ ترفيعهنّ من الحلقة الخاصّة الأولى وهؤلاء يخضعن لتأهيل دعوي مركّز، وبعضهنّ تترقّع للإشراف على الحلقات

ويعتمد التّرفيع على تقييم الآنسة المشرفة لمدى ولائها للجماعة وتفانيها في خدمتها.

حلقة الآنسات: وتضمّ الآنسات المشرفات، وتدرس فيها مناهج خاصّة، كما أنّها ميدان التّباحث في تقييم الطّالبات وسير الحلقات.

حلقة الآنسات الكبيرات أو حلقة الحجّات: وتضمّ الآنسة منيرة ومعها قيادة الجماعة في حلقة يتمّ التباحث فيها أحيانًا ببعض القضايا الفكريّة والمنهجيّة، لكنّها في الأصل من أجل إدارة شؤون الجماعة.

إنَّ "الحلقة" في أدبيّات الجماعات الدّعويّة هي روح الجماعة، ويكون الهدف الرّئيس منها تعزيز الولاء والانتماء وتمتين الجبهة الدّاخليّة وبناء النّفس على الجنديّة والسّمع والطّاعة، وغرس منطلقات الجماعة الفكريّة والشّرعية وتوجهاتها العامة في الأعضاء من خلال المناهج المختارة، وهكذا هي الحلقات عند القبيسيّات.

توحيد المظهر العام وتعليمات اللّباس الصّارمة.

لغايات تشكيل الذّات وتعزيز الانتماء، وتحقيق هويّة بصريّة خاصّة بها فرضت الجماعة على بناتها نظامًا صارمًا في اللّباس بقي الالتزام به بحذافيره إلى فترة قريبة، غير أنَّ الأجيال الجديدة من الجماعة غدت أقلّ التزامًا ببعض التّفاصيل بسبب غضّ بصر الآنسات حفاظًا على التفاف البنات حول الجماعة.

وتعكس هذه التّعليمات هيمنةً الآنسات على أدقّ التّفاصيل الخاصّة عند الطّالبات، وتخدم بنية الجماعة وهيكليتها العامّة بتحقيق صورة وسمت خاص متمايز، ومن هذه التّعليمات

الحجاب: ألوان الحجاب المتنقّلة من الأبيض إلى الأزرق البترولي البحري إلى الكحلي انتهاءً بالأسود ترتديها القبيسيّات بناء على نوع الحلقة والرّتبة.

ويجب على جميع القبيسيات ارتداء الحجاب بطريقة موحّدة وهي "الرّبط بعقدة" ويمنع منعًا مطلقًا استخدام الدّبّوس في تثبيت الحجاب ويعدّ وضع الدّبّوس في الحجاب إعلامًا بمفارقة الجماعة، وتقوم فلسفة الرّبط على أنّ العقدة تحمل معاني الثبات والمتانة.

ويمنع ارتداء الخمار الذي يغطّي الوجه كاملًا، كما يمنع النّقاب، ولا يقبل التحاق المنقّبات أو المغطيات وجوههنّ بالجماعة.

واستثني من هذا القرار البنات من البيئات التي تعارف أهلها على تغطية الوجه، فسمح لبعضهنّ بتغطية وجوههنّ.

أمّا اللّثام الذي يغطّي ما دون الأنف أو ما دون الفم المعروف "بالمنديل" فكان مسموحًا به فقط للآنسات الكبيرات أو في حالات استثنائيّة خاصّة.

المانطو: يجب على جميع القبيسيّات ارتداء المانطو المرتفع عن الكعبين بقدر أربعة أصابع على الأقلّ وصولًا إلى منتصف السّاقين، ويمنع منعًا باتًّا ارتداء الجلباب الطّويل.

كما يجب ارتداء "تنّورة مكسّرة" تحت المانطو، وشرط أن تكون "مكسّرة" شرط ضروري فلا تُقبَل "التّنورة السّحب" ولو كانت واسعة.

كما يمنع أن تكون "التنّورة" من الجينز ولو كانت واسعة، وعمومًا فإنّ لدى الجماعة حساسية عالية من "الجينز" وارتدائه ولو كان على شكل مانطو، خفتت هذه الحساسيّة في الفترات الأخيرة

البنطال: يمنع تمامًا ارتداء البنطال ضيقًا كان أم واسعًا، ولو كان تحت المانطو أو في البيت أمام المحارم الأب والإخوة، أو أمام البنات ولو كان في سكن للطّالبات، ويلحق به منع لبس البيجاما ولو كانت للنوم أمام أحد من المحارم أو النساء.

"القمطة": وهي قطعة القماش التي تجمع بها المرأة شعرها وتوضع عادة تحت الحجاب، فيجب ارتداؤها عند القبيسيّات ويمنع منعًا تامًا نزعها أمام الآخرين، سواء أمام المحارم في البيت، أو أمام النساء في جلساتهنّ الخاصّة أو سكن الطّالبات.

والأكمل عندهنّ هو عدم نزع الحجاب في البيت أو في مجالس النساء، فإن رغبت بنزع الحجاب فإنّها لا تنزع "القمطة" مطلقًا.

وفي بداية تطبيق هذه التعليمات ثارت ثائرة بعض الرّجال من وضع زوجاتهم "القمطة" في البيت، وحدثت مشكلات عديدة فأصدرت الآنسة منيرة تعليماتها بأنّه يستثنى من هذا القرار المتزوّجات، ثمّ ما لبث أن خفّ التشدّد في هذه النّقطة.

لباس المنزل: يمنع ارتداء البيجاما في المنزل أو سكن الطّالبات إلحاقًا بمنع البنطال، ويجب ارتداء "قميص النّوم" الطّويل.

كما يمنع ارتداء أيّ ثياب ذات أكمام قصيرة ‘‘نصف كم’’ ويجب ارتداء الأكمام الطّويلة في كلّ مكان.

هذه التّعليمات ساهمت بشكل واضح في تكوين طابع خاصّ ورسم صورة ذهنيّة عن الجماعة تتمايز بها عن غيرها.

وتكوين الهويّة البصريّة هذه يشكّل حالة تكامليّة مع الهويّة الفكريّة والشرعيّة بما يخدم بنية وهيكليّة الجماعة.

وهكذا يمكننا القول بأنَّ القبيسيّات لسن تنظيمًا بالمعنى المتعارف عليه للتّنظيم، ولسن حركةً أو تيّارًا، بل هنّ ‘‘جماعة دعويّة’’ متينة البنية، بسيطة الهيكليّة، حرصت على التّمايز عن غيرها في بنائها الهيكليّ وفي مظهرها العامّ لتحقق خصوصيّة هويّاتيّةً في إطار الهويّة الدّعويّة الجامعة.

ولكن هل القبيسيّات جماعة سريّة؟! وما قصّة الانتقال من البيوت إلى المساجد؟ في دار الأرقم

هناك في البيوت المتناثرة في أحياء المدن كانت القبيسيّات يجتمعن بعد أن يصلن إليها بسريّة وهدوء.

يستحضرن نموذج دار الأرقم التي كان يلتقي فيها النبيّ صلّى الله عليه وسلّم بأصحابه سرًّا في مكّة لتبليغهم الوحي وتعليمهم آي الكتاب المجيد.

وهذا الاستحضار كان يحقّق نتيجتين مهمّتين للجماعة؛ فقد كان عامل جذب لكثير من الفتيات اللّواتي كنّ يشعرن بأنَّ هذه اللقاءات التي تحدث بعيدًا عن أعين ‘‘الدّولة’’ تذكّرهنّ بالجيل الأوّل من الصحابة الكرام فيرين أنفسهنّ على دربهم وطريقتهم.

كما أنه كان يشكّل سببًا قويًّا لتثبيت الطّالبات وتعزيز انتمائهنّ للجماعة وهنّ يستشعرن عظيم المسؤوليّة الملقاة على عاتقهنّ في إحياء الدّين وتجديد الدّعوة إليه.

وكانت تُمارَسُ في الحلقات المنزليّة طقوسٌ تعزّز هذه ‘‘السريّة’’ في نفوس الطّالبات، منها منع التّصوير والتّسجيل، وكانت تُبرَّر الحساسية المفرطة من التّصوير والتّسجيل خشية أن تتسرّب فتلحق ضررًا بالجماعة.

وبعد انتشار الهواتف المحمولة غدا إدخال هذه الهواتف إلى غرفة اللقاء من المحظورات، فتوضع الهواتف خارج الغرفة في احترازٍ أمنيّ تمارسه عموم الجماعات والتّنظيمات السريّة في لقاءاتِها.

ويتكرّر التذكيرُ دومًا من الآنسات المشرفات بمفهوم أمانة المجلس وخطر إفشاء ما يجري ويدور في الحلقة من حوارات ونقاشات.

‘‘القَطْعَة’’ إجراءٌ احترازيّ تفرضُه السّريَّة

والقَطعَة هو المصطلح الذي تستخدمه الجماعة للدّلالة على توقّف سيرِ الحلقات وإلغاء الدّروس.

وكان هذا الإيقاف يحدثُ عندَ وقوع حدثٍ أمنيّ أو سياسيّ يُخشى معه زيادة النّشاط الأمنيّ، وهو إجراءٌ احترازيٌّ كي لا تدخل الجماعة في دائرة الاستهداف المباشر أو الملاحقة.

فعلى سبيل المثال كانت تحدُثُ القَطعة كثيرًا في الثّمانينات من القرن الماضي إبّان المواجهة بين نظام حافظ الأسد والإخوان المسلمين، وقد تستمرّ القَطعَة شهورًا وقد تجاوز السّنة كما حدث عند وفاة حافظ الأسد إذ استمرّ التوقّف عن الحلقات ما يزيد على سنة.

والمُخوَّل باتّخاذ قرار القَطعَة هو الآنسة منيرة ومعها مجلس الآنسات الكبيرات فقط، ولا يحقّ لأيّة حلقةٍ في دمشق أو غيرها اتّخاذ قرار القطعة، وفي خارج سوريا فالآنسة الكبيرة في تلكم الدولة هي صاحبة القرار.

ويتمّ إبلاغ قرار القَطعَة غالبًا بطريق المشافهة حيث تكلّف إحدى الطّالبات بالمرور على بيوت طالبات الحلقة وإبلاغهنّ أنّ هناك "قَطعَة" دون إبداء الأسباب، ويمنع استخدام الهواتف الأرضيّة والمحمولة في التبليغ، ويترافق التّبليغ عن القَطعَة مع طلب الدّعاء للجماعة بتفريج الكرب وطلب الالتزام بوِردٍ من الاستغفار على نية التفريج.

هل هي "سريّة" حقًّا؟!

إنَّ الحديث عن "سريّة" القبيسيّات في ظلّ نظامٍ أمنيّ بامتياز كنظام الأسد هو من النّكات المضحكة، فعدا عن كون السّمت العام والهويّة البصريّة المُعلنةِ والمعروفة للجميع فإنَّ هذا النّظام الأخطبوطيّ أمنيًّا لا يمكن أن يقبل بنموّ جماعةٍ أو نشاطها بعيدًا عن أنظاره.

وهنا لا بدّ من التّأكيد على أنَّ السّماح من النّظام السوريّ أو غيره لأيّة جماعة دعويّة بالنّشاط والعمل لا يعني بالضّرورة رضاه عنها أو تحكّمه في مفاصِلها، بل يمكن أن تكون هناك حسابات أخرى تدفع لهذا منها الموازنات الدّاخليّة بين الجماعات المختلفة والموثوقيّة من عدم تشكيل خطر حقيقيّ على وجود النّظام.

وينبغي هنا ملاحظة أنّ دعم الجماعة من قبل العلماء والدّعاة الذين يمثّلون موضع ثقة عند النّظام كان له دور بالغ الأثر في السّماح لهذه الجماعة بالعمل في المنازل بطريقةٍ "سريّة".

وهنا يمكننا التّأكيد على أنَّ هذه السريّة هي سريّة تعيشُها الطّالبات والآنسات في مخيلتهنّ وسلوكهنّ، كما أنّها سريّة تُمارَسُ على المجتمع المحيط، لكنّها لم تكن على الإطلاق جماعةً سريّة على أجهزة النّظام المختلفة فهي في مدى نظرِه وتحت رقابته الصّامتة.

ولذا فإنَّ وصف القبيسيّات بأنّهنّ "جماعة سريّة" هو وصف يجافي الحقيقة ويخالف الواقع والمنطق، والأدقّ وصفًا لهنَّ أنّهنّ "جماعة مغلقة" أي تمارس صورة السريّة بهدف تحقيق الانغلاق على الذّات بما يحفظ وجودها وكيانها لا بما يضمن سريّتها.

إلى مساجد دمشق

استمرّت الدّروس في المنازل حتّى عام 2005م، وبعد حراكٍ على مستوى مؤسسات النّظام قاده كلّ من د. محمّد سعيد رمضان البوطي لدى الأجهزة الأمنيّة ود. محمّد حبش في مجلس الشّعب الذي كان عضوًا فيه يمكن القول بأنّ مرحلة الدّعوة العلنيّة قد بدأت فعلًا.

فقد أكّد د. البوطي أنّه وبرفقة عدد من العلماء أبلغوا الأجهزة الأمنيّة بأنّ هذه الجماعة عملها مستقيم ووطنيّ ليسَ فيه أيّة شائبة، وأكّدَ أنّهنّ لا علاقة لهنّ بالسياسة على الإطلاق، وهذا يقتضي منحهنّ موافقات للتدريس في المساجد والعمل في العلن وفي هذا أصلًا مصلحة النّظام نفسه قبل مصلحة الجماعة.

أمّا د. محمّد حبش فيقول في إحدى مقالاته الدّفاعيّة عن الجماعة: "وخلال خدمتي في مجلس الشّعب تبّنيتُ مبدأ إخراج القُبيسيّات من الغموض إلى العلانية، وكان موقفي يستند إلى قناعتي بأنّ المجموعة هي في الواقع مجموعة تعليميّة ناجحة لا تمتلك أيّ برنامج سياسيّ، وأنّ ممارسة إرعابها ومحاصرتها قد يدفع كثيرًا من أبناء الجماعة للتطرّف، وبالفعل فقد تمكّنت من الحصول على عددٍ من الرُّخص لشيخات قبيسيّات لممارسة العمل العلنيّ في المساجد في سوريا، وكان ذلك بداية خروجهن إلى العلانية منذ عام 2005"

الملفت في تصريحات الشّيخين البوطي وحبش أنّه يوحي بأنَّ الانتقال من المنازل إلى المساجد كان مطلب الجماعة، وهذا مخالفٌ للحقيقة التي تؤكّد بأنَّ الجماعة كانت ترغب بالبقاء في النّشاط المنزلي غير أنَّ جهودًا بذلت من المشايخ أنفسهم مع الآنسة منيرة والآنسات الكبيرات لإقناعهنّ بالانتقال إلى العمل العلنيّ في المساجد.

وقد كانت الآنسات يطمحن إلى الجمع بين العمل المسجديّ والحلقات المنزليّة لكنّ تلك الرّغبة كانت بعيدة المنال، حيث ضعفت اللّقاءات والحلقات المنزليّة إلى حدٍّ كبير غير أنّها لم تتوقّف على الإطلاق.

التزاماتٌ مسجديّة جديدة

وفعلًا شرعت القبيسيّات بالحلقات والدّروس المسجديّة في دمشق وغيرها من المحافظات السوريّة بينما بقي النّشاط المنزليّ هو الأصل في بقيّة البلدان.

وهذا الانتقال إلى المساجد ترتّبت عليه تبعات جديدةٌ على الجماعة أهمّها وأوّلها هو الدّعاء للرّئيس بشّار الأسد في نهاية كلّ درس باسمه الصّريح، وهذا أمرٌ مفروض على جميع الخطباء والمدرّسين في مساجد سوريّا وعدم فعله يؤدّي إلى المنع من الخطابة أو التّدريس، وكانت القبيسيّات يفعلنه في نطاقات مختلفة فكان يغيب في الحلقات الخاصة ويحضر في الحلقات المفتوحة.

كما ترتّب عليه الالتزام بتعميمات وتعليمات وزارة الأوقاف، وقد حُرمت من العمل المسجديّ بعض الآنسات اللّواتي ينتمي لأسرهنّ شخصيّات إخوانيّة إذ كان ذلك سببًا في رفض منحهنّ الموافقة الأمنيّة اللازمة.

كما فرض هذا الانتقال إلى المساجد جوًّا جديدًا من انفتاح الجماعة على شرائح جديدة من الطالبات تخالف الضّوابط الصّارمة التي وضعتها الجماعة في مرحلتها السّابقة ممّا فرض عليها التّخفيف من شروط الالتحاق بالجماعة، والتخفّف من الضّوابط الموضوعة للسّلوك أو المظهر العام.

ولكن ما هي المرتكزات الفكريّة والدّعويّة والشّرعيّة التي تقوم عليها جماعة القبيسيّات؟ وما هي مناهج الحلقات؟

لا قيمة لجماعة أيّا كانت دون فكرةٍ تجتمع عليها، وتلتفّ حولها، وتعمل لها، وتضحّي في سبيلِها، ولا بدّ لهذه الفكرة أن تحمل في باطنها فرادة تتمايزُ بها عن الجماعات المتشابهة حتّى تكون لها شخصيّتها الفكريّة والتربويّة التي تميزها عن غيرها ولو كان بتفاصيل يسيرة وبسيطة، وهذا ما كان فعلًا عند القُبَيسيّات

علامَ ارتكزت القُبيسيّات فكريًّا؟

ترتكزُ القبيسيّات في البنيان الفكريّ على الجمع بين المدرسة الصّوفيّة العلميّة التّقليديّة والمدرسة الحركيّة.

والهدف من ذلكَ هو بناء تصوّرات الفتاة نحو الدّين والإيمان والكون والإنسان والحياة وعلاقة المسلم بذلك كلّه، بالاستناد إلى القرآن الكريم والسّنّة النبويّة، وتمتين العلاقة مع الجيل الأول من الصّحابة رضي الله تعالى عنهم.

فالمناهج التي تقرّرها الجماعة في حلقاتها تهدفُ إلى بناء الفتاة العارفة بمبادئ دينها وفق المنهج الوسط؛ وتمليكها مفاتيح العلوم الشرعيّة وما تحتاجه من أساسيّات في حياتها الواقعيّة.

إضافة إلى الإطلالة على علوم الحياة الإنسانيّة غير الشرعيّة من جغرافيا وتاريخ وأدب وثقافة عامّة.

وهذه المناهج التي تقرّرها الآنسة منيرة ومجلس الآنسات الكبيرات في عموم الحلقات تجمع بين حفظ القرآن الكريم وتجويده وعلوم الفقه والحديث والعقيدة والتّفسير والسيرة وتراجم الصّحابة والتاريخ والجغرافيا والثّقافة الإسلاميّة وبعض كتب الأدب.

وقد كانت الكتب في بداية الأمر يتمّ اختيارها من الكتب الموجودة المتوفّرة وهي تختلف في بعض تفصيلاتها الصغيرة من بلدٍ لآخر بناءً على توافر الكتب والسّماح بها في بلدٍ وعدم توافرها أو منعها في بلدٍ آخر.

ثمّ انتهجت الجماعة فكرة التّأليف الذّاتي بحيث تكون المناهج من تأليف آنسات الجماعة في كثيرٍ منها في الأوقات اللّاحقة.

ومن الطبيعيّ أن يكونَ القرآن الكريم حفظًا وتجويدًا هو المحور الأبرز في مناهج الجماعة، فقد كان هذا من أكثر ما تشدّد عليه القبيسيّات، وكنّ يحرصن على توجيه الشّابات والآنسات إلى الالتزام في حلقات الشّيخ أبو الحسن الكردي وهو من كبار قرّاء الشّام ومن جماعة زيد لنيل الإجازة منه، ومن ثمّ تشكيل مجموعات كبيرة من الحافظات المجازات القادرات على منح الإجازة.

وفي الفقه كان الكتاب المعتمد "فقه العبادات" للحاجّة دريّة العيطة رحمها الله وكانت من آنسات الجماعة.

وفي التّفسير فالكتاب المعتمد هو "مختصر تفسير ابن كثير" للصّابوني.

وفي الحديث كان "منهج النقد في علوم الحديث" للدكتور نور الدّين عتر هو الكتاب المعتمد.

أمّا العقيدة فكانت الكتب في البداية "كبرى اليقينيات الكونيّة" للدكتور محمد سعيد رمضان البوطي و"العقيدة الإسلاميّة" للدكتور مصطفى الخنّ و"أسس العقيدة الإسلاميّة" لعبد الرّحمن حبنّكة إلى أن ألّفت الآنسة سعاد ميبر وهي من آنسات الجماعة كتاب العقيدة الإسلاميّة ليغدو هو الكتاب المعتمد.

أمّا السّيرة فقد اعتمدت عدّة كتب منها "فقه السّيرة" للبوطي و"دراسات في السيرة" لعماد الدّين خليل إلى أن ألّفت الآنسة سميرة الزّايد وهي من أشهر آنسات الجماعة كتابيها "الجامع في السيرة النبوية" ومختصره "مختصر الجامع" فصارا هما الكتابين المعتمدين في السّيرة.

أمّا كتب التّراجم فهي "رجال حول الرّسول" لخالد محمّد خالد، و"رجال الفكر والدعوة" لأبي الحسن الندوي، و"نجوم في فلك النبوّة" لأسماء طبّاع.

ومن الكتب التي كانت معتمدة في الجماعة كتاب "الرّسول القائد" لمحمود شيت خطاب، و"ربّانية لا رهبانيّة" لأبي الأعلى المودودي، وبعض روايات نجيب الكيلاني، ومجموعة كتب وكراسات في التاريخ للدكتور شوقي أبو خليل وبعضها من تجميع بعض الآنسات.

وفي بعض الدّول خارج سوريا كان يتمّ توجيه الطالبات إلى بعض كتب سيّد قطب ومحمّد الغزالي ويوسف القرضاوي.

وكانت تقام امتحانات في هذه الكتب بعد الانتهاء منها، وكان النّجاح في هذه الامتحانات أحد معايير قبول الانتقال من مستوىً إلى آخر فوقه داخل الجماعة.

ومن خلال التّمعّن في الكتب والمنهجيّة التي يتمّ اختيارُها بها نرى جليًّا تعدّد المشارب بين الصّوفيّة العلميّة والحركيّة الإخوانيّة، وهذا المزج كان له دورٌ كبير في تشكيل الوعي وبناء الفكر، كما أنّه أشعر المنتسبات أنّهن يحصلن على جرعات فكريّة لا يحصلن عليها بهذا الشكل في أيّ محضن آخر فكان هذا التنوّع عامل جذبٍ إضافيّ.

وماذا عن البناء التّربوي؟

أمَّا البناء التربوي فيهدف إلى بناء المسلمة المتديّنة تديُّنًا متينًا الملتزمة بمبادئ الإسلام وشعائره التزامًا ظاهرًا وباطنًا.

فلذلك كان التّركيز على أداء الشّعائر لا سيما صلاة الفجر من القضايا الأساسيّة، إضافة إلى تقديم خطاب توكيدي على وجود برنامج مستمرّ للتهجّد وقيام الليل.

وكان هناك اهتمام كبير بالأوراد والذّكر، وبعض الأوراد كانت تقام لها طقوس احتفاليّة خاصّة تحت عنوان "تسليم الوِرد" وفيه تقوم الآنسة بتكليف الطالبات بالوِرد وتتابعها في تطبيقه وتنفيذه.

وعند النّظر في الأوراد التي تعتمدها الجماعة فإننا نجد بأنّها أيضًا تقوم على مزج بين الصّوفيّة الطرقيّة والصّوفيّة العلميّة وجماعة الإخوان.

فمن أهمّ الأوراد التي تقرّرها الجماعة في حلقاتها "دعاء الرّابطة" الذي اعتمده الأستاذ حسن البنّا في مأثوراته التي ينفّذها الإخوان المسلمون يوميًّا، وصيغته:

"اللهمّ إنّك تعلمُ أنّ هذه القلوب قد اجتمعت على محبّتك، والتقت على طاعتك، وتوحّدت على دعوتك، وتعاهَدت على نصرة شريعتك؛ فوثّق اللّهمّ رابطتَها وأدِم ودّها واهدها سبلها، واملأها بنورك الذي لا يخبو، واشرح صدورَها بفَيض الإيمان بك، وجميل التوكّل عليك، وأحيِها بمعرفتك، وأمِتها على الشّهادة في سبيلك، إنّك نعم المولى ونعم النّصير"

وكذلك "الصّلاة الناريّة" وهي صيغة بالصّلاة على النبيّ صلّى الله عليه وسلّم اعتمدها الشّيخ عبد الكريم الرّفاعي حتّى صارت علمًا على جماعة زيد، وهي:

"اللهم صلِّ صلاةً كاملةً، وسلّم سلامًا تامًّا على سيّدنا محمّد، الذي تنحلُّ به العقد وتنفرجُ به الكرب، وتُقضى به الحوائجُ، وتُنالُ به الرغائب وحسن الخواتيم، ويُستسقى الغمام بوجهه الكريم، وعلى آله وصحبه وسلّم"

وكذلك "ورد الرّابطة" الذي تختصّ به الطّريقة النّقشبنديّة وهو ذكر الله تعالى بالاسم المفرد مع إغماض العينين واستحضار صورة الشّيخ.

وتقام لهذا الورد جلسة ذكرٍ احتفاليّةً بتسليمه كما في الطّريقة النّقشبنديّة بعد تجاوز الطالبة المستويين الأول والثّاني وتقوم الآنسة بتسليم الوِرد.

غير أنَّ انتقادات كبيرة بدأت تخرج من الطّالبات في الفترة الأخيرة حول هذا الوِرد لما ينطوي عليه من إشكالات ممّا دعا الجماعة إلى التّخفّف منه وعدم الإلزام به في الفترات الأخيرة.

ممّا يجدر التّأكيد عليه بعد الحديث عن هذه المرتكزات والمناهج هو أنَّ البناء الفكريّ والتربوي كلاهما منوطٌ في الحقيقة بتنفيذ الآنسة المشرفة على الحلقة والتي ترتبط بها الطّالبة ارتباطًا وثيقًا.

ولذا يغدو الحديث عن المناهج وحدها غير منطقيّ دون الولوج إلى تفاصيل العلاقة بين الآنسة والطالبة، وماهيّة هذه العلاقة وطبيعتها، فالآنسات في جماعة القبيسيّات لهنّ الدّور الأكبر في تشكيل الطّالبات النّفسي والفكري.

فما هي طبيعة العلاقة بين الآنسات والطّالبات في جماعة القبيسيّات، وما أثر ذلك على تكوين الشّابّات؟ في عموم الجماعات الدّعويّة تبقى الرّابطة الأوثق هي الرّابطة بين الشّيخ والمريد والمربّي والطّالب والقبيسيّات لسن بدعًا من ذلك فالعلاقة بين الآنسة والطّالبة هي التي تصوغ سلوك الفتاة وتشكّل وعيها وترسم بنيانها النفسي، وتحدّد طبيعة المُخرجات التي تنتجها الجماعة سلوكيًّا وفكريًّا وتربويًّا، وقد اتّسمت هذه العلاقة بسماتٍ عديدة من أهمّها.

طهرانيّة الآنسة

من أهم ما تتسّم به لقاءات الآنسة بالطّالبات هو ترسيخ مبدأ طهرانيّة الآنسة؛ فهي من "أهل الله" ومن "أولياء الله" بخلاف الطّالبات اللّواتي عليهنّ اتّهام أنفسهنّ وتحميلهنّ مسؤوليّة أيّ ارتكاسٍ يقع في الحلقة أو في الجماعة.

فمن المشاهد المتكرّرة أن تأتي الآنسة فتكون نفسيّتها متعبة أصلًا وتشعر بضيق، أو يرتج عليها فلا تستطيع إعطاء الدّرس أو تنسى معلومة، فيكون التفسير دومًا باتّهام الطّالبات بأنَّ الله تعالى حرمكنّ بسبب معصيتكنّ أو بسبب وجود إحدى العاصيات بينكنّ، ولا يمكن بحالٍ من الأحوال تحميل الآنسة مسؤوليّة أيّ شيءٍ من هذا.

وقد غدا هذا الأمر ظاهرة عامّة في الحلقات ممّا دعا د. محمّد سعيد رمضان البوطي - رغم محبّته للقبيسيّات ودفاعه المستميت عنهنّ - إلى انتقاد هذه الظّاهرة أكثر من مرّة في دروسه.

وأذكرُ جيّدًا أنني سمعته يقول في دروسه: ‘‘إنّ هناك آنسات في أثناء الدّرس إن نسيت إحداهنّ أو أرتج عليها تقول لطالباتها إنَّ الله تعالى قد حرمكنّ بسبب معاصيكنّ، وإن فتح الله عليها نسبت الفضل في ذلك إلى إخلاصها، وهذا داءٌ خطيرٌ والأصل هو خلاف ذلك’’.

ثمّ يقسم قائلًا: ‘‘والله إنني أجلس أتحدّث إليكم فيفتح الله عليّ بأفكار لم أكن أخطط لقولها هي أفضل ممّا كنت قد حضّرتُه وجهّزته، فأقول لنفسي: إنّ هذا بسبب إخلاص السّامعين الذين ساق الله لهم هذا الرّزق على لساني، وأحيانًا أكون قد جهّزت في نفسي فكرة فتطير من رأسي وأنسى ما أريد قوله فأقول لنفسي: إنَّ هذا بسبب معصيتي وتقصيري’’

لكنّ عموم الآنسات القبيسيّات كنّ يركّزن على أنّ أيّ خلل يقع منهنّ في الإعطاء هو حرمان من الله تعالى للطّالبات وعقوبة لهنّ على تقصيرهنّ ومعاصيهنّ، فعلى حسب ملائكة الحاضرات يكون التّجلّي والإلهام كما كان يتمّ التّعبير عن ذلك.

هذا المنطق رسّخ في نفوس الطّالبات حالة من الطّهرانيّة للآنسة مع الشّعور الخفيّ بالدّونيّة التي تقتضي تحميل انفسهنّ أخطاء غيرهنّ.

مبالغةٌ في التّبجيل والتّقديس

‘‘أهل الله’’ هذا المصطلح يطلق عادة على الآنسات في إطار التّزكية والتّبجيل، وأنّ هذه التّزكية ومعها ترسيخ مبدأ الطّهرانية، إضافة إلى قدرة الآنسات المشرفات على الإبهار والتّأثير؛ يؤدّي إلى التّعلّق القلبيّ بالآنسة تعلُّقًا يثمر التّبجيل الذي يصل حدّ التّقديس في بعض الحالات.

ولا بدّ من التّأكيد بأنّ هذا يختلف من بيئةٍ إلى بيئة؛ فبيئة الخليج عمومًا ليست من بيئات التّبجيل المبالغ فيه كما هو في بيئة الشّام، كما يختلف من آنسة إلى أنسة على حسب الاستعداد النّفسي للآنسة.

عموم آنسات القبيسيّات كنّ يرفضنَ أن تقبّل الطالبات أيديهنّ أو يحملنَ أحذيتهنّ أو يمارسن معهنّ طقوس التّبجيل لكنّهنّ بالمقابل لم يكنّ ينكرنَ ذلك، وهذا امتدادٌ لحالة التبجيل المبالغ فيه عند الطرق الصّوفيّة.

ومن مفرزات هذا التّبجيل شعور الطّالبة بأنّ علاقتها مع الآنسة أمتن من علاقتها مع الشّرع نفسه، واعتقادها بأنّ الآنسة هي بوابتها الحصريّة للوصول إلى الله تعالى، كما وصل الأمر إلى حالات حبٍّ مَرَضيّ وتعلُّقٍ غير سليم من بعض الطالبات كان يُعبَّرُ عنه بغيرةٍ شوهاء وتنافسٍ طفوليّ لكسب قلب الآنسة.

وممّا ترتّب على حالة التّبجيل هذه غيابٌ لأجواء الحوار الجدليّ والنقاش الاعتراضي مع الآنسات في الحلقات، وكان يشار بالبنان إلى الفتاة كثيرة الاعتراض أو الانتقاد ويتمّ التعامل معها بجفاء جليّ لتجد نفسها خارج إطار الجماعة شيئًا فشيئًا.

كما ترتّب على هذا التّبجيل محاولة الكثير من الطّالبات الاقتداء التّام بالآنسات الكبيرات، وقد تسبّب هذا ببعض الظواهر التي ألصقت بالجماعة ومن ذلك فكرة العزوف عن الزّواج

ففي الحقيقة ليست هناك توجيهات من القبيسيّات للفتيات بالعزوف عن الزّواج، ولكنّ حالة التبجيل المبالغ فيه للآنسات اللّواتي كانت الكثيرات منهنّ غير متزوّجات رغبةً منهنّ عند البعض ولعدم توافر فرصة الزّواج للبعض الآخر؛ جعل عددًا من الطّالبات يستشعرن بأنَّ هذا من الفضائل التي ينبغي تقليد الآنسة فيها، فلو كان الزّواج خيرًا ليسّره الله تعالى للآنسة التي هي من "أهل الله"
القسوة منهجًا

من الطّبيعيّ أن تكون طبائع الناس في الرّقة والغلظة، واللّطف والشّدّة، واللّين والفظاظة مختلفة، لكنّ ما أصبغت به سلوكيّات الكثير من الآنسات مع طالباتهنّ القبيسيّات هو الشّدّة والقسوة في السّلوك، وذلك من باب الحرص على سلوك الطّالبات وظنًّا منهنّ أنّ هذا السّلوك سيحفظ على البنات التزامهنّ وابتعادهنّ عن الميوعة والانحلال.

وهذه القسوة كانت تظهر في أوجها عند بلوغ أيّ معلومة أو وشاية على طالبة من الطّالبات في المجال السّلوكي كالعلاقة بين الجنسين ـ على سبيل المثال ـ التي تعدّها الجماعة من المحظورات التي لا يمكن التّهاون فيها.

هذه القسوة كانت تظهر على شكل شدّة في الكلام ومبالغة في التّوبيخ وتوصيفات جارحة كأن يقال للفتاة بأنّ نور الإيمان غادر وجهها وقد يصل الأمر إلى الهجر والقطيعة.

وهذه القسوة انعكست على سلوك الطالبات بحيث غدت العديدات منهنّ يمارسن السّلوك الجاف في حياتهنّ الاجتماعيّة خشية التعرض لقسوة الآنسة من جهة ولتشربّهنّ القسوة بالمحاكاة.

كما تسبّبت هذه القسوة بردّات فعل العديد من المنتسبات للجماعة لا سيما من كنّ في المستويات الأولى فهجرن الجماعة وربما عادينها بسبب ما تعرّضن له من قسوة في التعامل وشدّة في السّلوك.
لا خصوصيّات على الآنسة

كونها المشرفة والمربيّة والأقرب إلى الله تعالى ومحل الثّقة المطلقة؛ غدت الآنسة مستودع أسرار طالباتها، وغدت المستشارة المطلعة على أدقّ خصوصياتهن الأسرية والزّوجيّة.

ولم تكن هناك تعليمات صريحة غير أنَّ الجوّ العام غدا يُشعر الطالبة بأنّها لا يجوز أن تخفي شيئًا من خصوصيّاتها عن الآنسة، ويجب استشارتها في أخصّ الخصوصيّات.

وهذا أتاح للآنسات الهيمنة النّفسيّة على الطّالبات؛ ممّا أتاح لهنّ التّحكّم في كثيرٍ من الأحيان بقرارات طالباتهنّ المصيريّة المتعلّقة بالدّراسة أو بالزّواج أو العمل أو غير ذلك.

وكان يصل الأمر في هذه الهيمنة أن يكون قول الآنسة مقدَّمًا عند الفتاة على قول أمّها وأختها وأسرتها، فالآنسة هي الأقرب ورضاها هو أمارةٌ على رضا الله تعالى وسخطها دلالةٌ على الطّرد عن باب الله عزّ وجل.

إنّ هذه السّمات في العلاقة بين الآنسات والطّالبات عند القبيسيّات جعل الطّاعة للآنسات تكاد تكون طاعةً مطلقة، وفي كثيرٍ من الأحيان لم تكن طاعةً مبصرة، كما جعلت قدرتهنّ على توجيه الطالبات إلى مساحات معيّنة من الرّأي والتوجّهات عاليّة.

ولكن كيف هو حالهنّ في عالم السّياسة، وكيف كانت علاقة القبيسيّات بالنّظام السّوري في عهد حافظ الأسد؟! لا يمكن فهم التحولات التي تجري في عموم الجماعات الدعويّة والتيارات الفكريّة في سورية دون العودة إلى حقبة حكم حافظ الأسد التي تعدّ الحقبة التي صاغت شكل سورية على ما هي عليه اليوم.

نعوذُ بالله من الشّيطان والسّياسة

ومن المهمّ أن نلحظ أنَّ انطلاق النّشاط القبيسيّ كانَ في ستّينات القرن الماضي أي في ظلّ هيمنة حزب البعث على السّلطة؛ هذه الهيمنة التي كانت جسرًا لوصول حافظ الأسد إلى سدّة الحكم.

وهذا يفيدُنا بأنّ انطلاقة عمل الجماعة في ظلّ حكم البعث وفي فترة كانت التّصارع السّياسيّ في سورية في أجلى صوره وأشدّ حالاته قد ألقت بظلالها على توجّهات الجماعة التي اتّخذت موقفًا مبدئيًّا يتمثّلُ في تجنّب السّياسة والعمل بها أو تعاطيها أو مجرّد التّحدُّث بشؤونها وقضاياها في الحلقات.

فكان الحديثُ في السياسة محظورًا لا يجوز الاقتراب منه أو التّلميح إليه ولو في الدّعاء، منتهجين في ذلك عبارة الشّيخ بديع الزّمان النّورسي الشّهيرة "أعوذ بالله من الشّيطان والسّياسة" على اختلافٍ كبيرٍ بينهم وبين النّورسيّ في التّعامل مع السّياسة والسّياسيين.

بل أكثر من ذلك فقد حرصت القُبيسيّات على الدّوام على تصدير فكرةِ رفض الاقتراب من السّياسة والتّصريح بها للطّالبات وأهليهنّ وبالطّبع ستصل إلى أجهزة النّظام التي لم تكن غافلةً عن هذا النّشاط النّسائيّ الذي يتمدّد بهدوء.

غضّ الطّرف الأمنيّ

تعاملت أجهزة النّظام السّوري لا سيما الأمنيّة منها بمبدأ غضّ الطّرف مع القُبيسيّات، رغم أنّ هذه الأجهزة ذاتها كانت تشنّ حربًا عسكريّة وأمنيّة وإعلاميّة على جماعة الإخوان المسلمين بكلّ مكوّناتها بما فيها أذرعها الدّعويّة والاجتماعيّة.

ويعودُ غضّ الطّرف هذا إلى اقتناع أجهزة الأمن في نظام حافظ الأسد بوجود بونٍ شّاسعٍ بين القبيسيّات وجماعة الإخوان، وبينهنّ وبينَ العمل السّياسي، إضافة إلى سياسة النّظام في تلكَ الفترة التي كانت تقوم على محاولة عزل جماعة الإخوان عن الواقع الاجتماعي والدّعوي وتصدير وترسيخ فكرة أنَّ مشكلة النّظام هي مع الإخوان ومن انخرط معهم في المواجهة لا مع الإسلام، فلذا كان لا يتمّ التّعرّض لعموم الجماعات الدّعويّة النّاشطة في دمشق وفي المدن الكبرى كحلب وحمص، وتمّ التّعامل مع القبيسيّات بالمنطق ذاته.

وغضّ الطّرف هذا لا يتناقضُ مع الاستدعاءات الأمنيّة الدّوريّة لبعض الآنسات والمشرفات، وهذه الاستدعاءات كانت تشمل عموم الخطباء والأئمة والدّعاة، وهي تهدف إلى إعطاء رسائل واضحة

بأنَّ النّظام غير غافلٍ عمّا يدور حوله وأنَّ حربه على الإخوان لم تشغله عن غيرهم، إضافة إلى ضبط حركة هذه الجماعات المختلفة بما لا يخرجها مع الزّمن عن السّيطرة والتّحكّم.

إجراءات احترازيّة

بعد مجزرة حماة وما بات يُعرَف بأحداث الثّمانينات دخلت الحالة الدّعويّة وعموم العمل الإسلامي في سورية في نفق مظلم.

رغم هذا المشهد القاتم الذي عاشته سورية في ثمانينات القرن الماضي لم تتوقّف القبيسيّات عن العمل الدّعوي ولم تنتهِ الحلقات؛ غير أنَّ الجماعة في مساعيها للحفاظ على وجودها وبقاء كيانها كانت تسلك العديد من الإجراءات الاحترازيّة من أهمّها:

أولًا: "القَطعَة"؛ حيث كثرت القَطعات وهي كما ذكرنا من قبل إيقاف للعمل والنّشاط القبيسيّ احترازيًّا، فكان كلّما وقعت مجزرة أو تفجير أو عمليّة اغتيال تقطع الجماعة دروسها وتوقف نشاطها بشكل كليّ خشية التّعرض لأيّة ملاحقة أو تضييق إضافيّ.

ثانيًا: التّخفيف من الحركة والنّشاط، حيث عمدت الجماعة في تلك الفترة إلى تقليل النّشاط بشكلٍ كبير حتّى خارج أوقات "القَطعة" بحيث تتباعد مواعيد اللّقاءات وتقليل عدد أعضاء الحلقة، وقد كان لموقف الأهل الخائفين على بناتهم أثر كبيرٌ في قلّة النّشاط وعدد الطّالبات في تلك الفترة الحرجة.

ثالثًا: استثمار وقت التّوقّف عن النّشاط والحلقات في التّأليف والكتابة وإعداد المناهج، حيث كانت التّوجيهات للآنسات بضرورة استثمار عدم الانشغال بإعداد مناهج خاصّة بالجماعة من تأليف آنساتها.

المعركة مع مدير أوقاف دمشق الشّيخ عبد الله دكّ الباب

والشّيخ عبد الله دكّ الباب هو مدير معهد بدر الدّين الحسني للعلوم الشّرعيّة في دمشق، وكان يُعرف باسم معهد الأمينيّة، تولّى في منتصف تسعينات القرن الماضي منصب مدير أوقاف دمشق.

وقد كانت هذه الفترة هي أواخر حياة حافظ الأسد الذي مات عام 2000م، ويمكن القول بأنَّ هذه السّنوات شهدت الحدث الأبرز للقبيسيّات في علاقتهنّ مع نظام حافظ الأسد.

حيث بدأت معركة حامية الوطيس بين الشّيخ عبد الله دكّ الباب وبين القبيسيّات كان عنوانها الظّاهر هو قضايا مالية متعلّقة بأوقاف تابعةٍ لجمعيّة بدر الدّين الحسني وللقبيسيّات علاقة مباشرة بها، وهي أوقاف تُقدّر بمئات الملايين من الدّولارات.

وفي تقديري أنَّ النّظام لم يكن هو الذي دفع دكّ الباب إلى إشعال هذه المعركة مع القبيسيّات، لكنّه كان راضيًا عنها سعيدًا بها ومستفيدًا منها الفائدة الأكبر.

ويمكن القول إنَّ هذه المعركة كانت بداية التّحوّل في منهجيّة تعامل النّظام مع القبيسيّات، وكانت هي السّبب الرّئيس في خروجهنّ من البيوت إلى المساجد، وقد كان الشّيخ عبد الله دكّ الباب يكرّر قسمًا بأنّه "سيخرجهنّ من جحورهنّ واحدةً واحدةً".

احتدمت المعركة التي كانت نيرانها تقوم على الاتّهامات المتبادلة بالفساد الماليّ، فكان الشّيخ عبد الله دكّ الباب يبرّر معركته عليهنّ بحرصه على تطهير الأوقاف من الفساد المالي الذي تحاول القبيسيّات فرضه على واقع الأوقاف التّابعة لجمعيّة بدر الدين الحسني، وبالمقابل فإنَّ القبيسيّات لم يألين جهدًا في توجيه الاتّهامات بالفساد المالي والفكري والسّلوكيّ للشّيخ عبد الله دكّ الباب.

استمرّت هذه المعركة إلى ما بعد عهد حافظ الأسد، لتكون نتيجتها الظّاهرة انتصار القبيسيّات حيث اعتقلَ الشّيخ عبد الله دكّ الباب وحكم عليه بالسّجن سبع سنين وأودع سجن عدرا المركزي.

غير أنَّ الحقيقة والواقع يثبت أنَّ المنتصر في هذه المعركة كان النّظام وحده، حيث أودع دك الباب السّجن وكانت نهاية المعركة بداية مرحلة جديدةٍ في عهد القبيسيّات وعلاقتهنّ مع نظام بشّار الأسد.

وفي السّجن ألّف عبد الله دكّ الباب كتابًا يقع في أكثر من أربعمئة صفحة عنوانه "ازدواجيّة المعايير؛ داءٌ عند بعض الدّعاة والدّاعيات في هذا العصر"

والكتاب محاولةٌ من دكّ الباب لإثبات براءته ممّا اتّهم به وسجن بسببه، وهجوم على القبيسيّات والدّعاة الذين ساندوا الجماعة ووقفوا معها.

واللّافت أنّ الكتابَ أُلِّف وطبع إبّان وجود دكّ الباب في السّجن، ومن يعلم واقع سوريا يعلم أنَّ هذا من المستحيل أن يتمّ في ظلّ نظام الأسد، وأنّه ما كان ليكون لولا رضا وإرادة الأجهزة الأمنية التي بقيت تستثمر الأطراف المتنازعين في هذه المعركة حتّى الرّمق الأخير.

في عام 2000م مات حافظ الأسد، وأعلنت القبيسيّات مع موته إيقاف كلّ الحلقات والأنشطة والبرامج الدّعوية لفترة كانت هي الأطول في تاريخ الجماعة حيث امتدّت "القَطعَة" هذه المرّة لأكثر من سنة، لتعود من جديد مع عهد الأسد الابن وتحولات حقيقيّة طالت منهجيّة التّعامل مع الجماعة.

ولكن كيف تعاملَ نظام بشّار الأسد مع القُبيسيّات قبل الثّورة السّوريّة؟!

"إجماع" بهذه الكلمة تمّ تعديل الدّستور في مجلس الشّعب في يوم إعلان موت حافظ الأسد ليغدو الشّابّ بشّار الأسد وريث الحكم في هذا النّظام "الجمهوريّ"

الاستبشار بربيعٍ لم يُزهر

وكغالبيّة أطياف الشّعب ونخبه استبشرت القُبيسّات خيرًا بشعارات التّحديث والتّطوير التي رفعها بشّار الأسد.

وبعد "القَطعَة" الأطول التي دام توقّف النّشاط بها ما يزيد عن سنة استأنفت الجماعة نشاطها، وغرق الكثيرون من الإسلاميين وغيرهم في الحلم، وقبلَ أن يرى القوم أزهار "ربيع دمشق" استيقظوا من الحلم على أصوات مكابح دوريّات الأمن والضّرب بأعقاب البنادق على أبواب البيوت ليُقتاد كلّ الذين تمادَوا في الحلم إلى المعتقلات وليغدو "ربيع دمشق" سرابًا بقيعةٍ يحسبه الظمآنُ حريّة.

لكنّ اللّافت أنَّ نظام بشّار الأسد بدأ بعدَ أقلّ من سنةٍ واحدةٍ من استلامه للحكم يكشفُ عن توجّه جديدٍ مختلفٍ عمّا حاول الأسد الأب ترسيخَه وإقناع النّاس بأنَّ مشكلته ليست مع الدّعوة الإسلاميّة بل مع من كان يسمّيها ‘‘عصابة الإخوان المسلمين العميلة’’ ليكتشفَ النّاس شيئًا فشيئًا أنّهم أمام مرحلة جديدة لن تكون سهلةً على عموم العمل الدّعوي، وبدأت القبيسيّات يتحفّزن للمرحلة القادمة غير أنّهنّ لم يكنّ يتوقّعن أن يكنّ عنوان المرحلة؛ مرحلة المواجهة النّاعمة للعمل الدّعوي التّقليديّ.

القُبيسيّات في ‘‘بقعة ضوء’’

كانت الدّراما هي وسيلة النّظام لإخراج القبيسيّات من غرفهنّ المغلقة ليصبحنَ حديث الشّارع.

ومن نافلة القول: إنّ الدّراما في الدول المحكومة من أجهزة الاستخبارات والخاضعة للقمع والاستبداد تعبّرُ بالضّرورة عن توجّهات هذه الأجهزة وتقدّم للنّاس رؤية النّظام للقضايا المطروحة مهما كانت.

وفي عام 2002م أدخل إعلام النّظام القُبيسيّات إلى كلّ بيتٍ عبر حلقة من المسلسل السّاخر ذائع الصّيت حينها ‘‘بقعة ضوء’’.

وتمَّ طرح صورة الجماعة في هذه الحلقة بطريقةٍ ساخرةٍ والتّركيز على فكرتين أساسيتين هما: استهدافُ القُبَيسيّات للطّبقة الثّريّة وخداع هذه الطّبقة باستمالتها للتّديّن، والفكرة الأخطر كانت تصوير الآنسات في الجماعة على أنّهنّ يوظّفن الدّين لأجل مصالحهنّ الشّخصيّة، واستثمار الدّعوة لأجل نهب الأموال والإثراء الشّخصيّ عبر استغلال الدّين.

القُبيسيّات وجهٌ ‘‘عصيّ الدّمع’’

وفي شهر رمضان عام 2005م أي في الفترة التي انتقلت فيها الجماعة من البيوت إلى المساجد؛ عُرض المسلسل الثّاني الذي يتطرّق للقبيسيّات وهو مسلسل ‘‘عصيّ الدّمع’’ الذي ألّفته ‘‘دلع الرّحبي’’ وأخرجه زوجها ‘‘حاتم علي’’، وهو مسلسل يقدّم القبيسيّات بوصفهنَّ شريحةً لا يمكن تجاهلُها في المجتمع.

والفكرة التي يركّز المسلسل عليها فيما يتعلّق بالقبيسيّات هي انغلاق الجماعة وتطرّفها ورفضها للآخر، حيث تقوم الممثّلة ‘‘ثناء دبسي’’ بأداء دور الآنسة القبيسيّة التي تتحلّق حولها طالباتها وهي تعظهنّ في الأخلاق وتركّز على أهميّة الحجاب؛ ليصدمها ابنها الذي يؤدّي دوره المخرج ‘‘حاتم علي’’ بقراره الزّواج من فتاة غير محجّبة؛ لتدخل معه أمّه في مواجهةٍ عظيمةٍ وجدلٍ كبيرٍ يجسّد فكرة التّعصّب ورفض الآخر التي يريد المسلسل إيصالها عن القُبيسيّات.

ومن اللّوحات التي تعزّز هذه الرّسالة في المسلسل مشاهد طالبة هذه الآنسة التي تؤدّي دورها الممثّلة ‘‘صباح جزائري’’ وهي طبيبةٌ كلّ همّها الحفاظ على ابنها المراهق لكن بعقليّة منغلقة وقمعيّة أدّت إلى نفور عموم الأسرة منها وزواج زوجها سرًّا.

مسلسل ‘‘المارقون’’ والقبيسيّات في برزخه

وفي شهر رمضان عام 2006م عُرض مسلسل ‟المارقون” الذي أخرجه نجدة أنزور في عشر ثلاثيّات، وكلّ ثلاثيّة لها عنوانٌ مستقلّ وتتناول قضيّة خاصّة، كان نصيب القبيسيّات منها ثلاثيّةٌ بعنوان ‟البرزخ”.

ومن المهمّ التأكيد على أنَّ نجدة أنزور تربطه علاقة صداقة خاصّة ببشّار الأسد، وهو يعبّر في أعماله الفنيّة عن رأيّ بشّار الأسد وعموم النّظام الحاكم في سوريا.

ومسلسل المارقون من المسلسلات التي عملت على إلصاق وصف الإرهاب بكثيرٍ من الظّواهر الإسلاميّة وعمل أنزور في عموم أعماله الفنيّة على تقديم الشريحة المتديّنة بصورة في غاية القبح والبشاعة على الدّوام.

وثلاثيّة البرزخ كانت خاصّة بالحديث عن القبيسيّات، وكانت بطلة الثّلاثيّة الممثّلة ‟لمى إبراهيم” التي اكتشفها المخرج أنزور.

وتجسّد دور ‟سلمى” وهي فتاةٌ من عائلة متحرّرة ومخطوبة لشابٍ تعشقه، لتتغيّر حياتها بعد أن تتعرّف على القبيسيّات اللّواتي يسحبنها إلى الجماعة فتلبس الحجاب، وتدخل في قوقعة التّزمّت وتترك خطيبها، وتبدأ المشكلات بينها وبين أهلها وتعاملهم وكأنّهم كفّار.

ثلاثيّة ‟البرزخ” في مسلسل ‟المارقون” تجسّد صورة القبيسيّات بوصفهنّ جماعة متطرّفة تعمل على غسل أدمغة الفتيات وتخرّب العلاقات الاجتماعيّة وتنظر للمجتمع بوصفه كيانًا مارقًا من الدّين.

وعلى الهامش فإنّ إحدى بطلات ثلاثيّة البرزخ وهي الممثّلة ‟سوزان سلمان” لقيت حتفها في قذيفة هاون عشوائيّة على منزلها في مدينة دمشق عام 2014م.

‟ما ملكت أيمانكم” ذروة المعركة

في رمضان عام 2010م عُرض مسلسل ‟ما ملكت أيمانكم” الذي ألّفته ‟هالة دياب” وأخرجه نجدة أنزور.

وقد هاجم القُبيسيّات بشراسة وصوّرهن بوصفهنّ إحدى مفارخ الإرهاب، وهاجم عموم حالة التّديّن والدّعوة، وركّز النّظر على حلقات القُبيسيّات وصوّر علاقة الآنسات بالطّالبات والطّالبات فيما بينهنّ بشكلٍ يكرّس صورة المتديّنة بأنّها غارقة في الشّهوانيّة والنّفاق والخضوع.

وقد لاقى المسلسل هجومًا كبيرًا من الإسلاميّين عدا القُبيسيّات اللّواتي يلتزمن الصّمت دومًا أمام أيّ هجومٍ يتعرّضن له، وكان أكثر الثّائرين ضدّ المسلسل د. محمّد سعيد رمضان البوطي الذي طالب بوقف عرضه، وحذّر من غضب الله عزّ وجلّ بسببه فقال:

‟إنّني لست متنبّئًا بغيب، ولست من المتكهنين بأحداث المستقبل، ولكنّي أحمل إليكم النّذير الذي رأته عيني، إنّها غضبةٌ إلهيّةٌ عارمة، تسدّ بسوادها الأفق، هابطة من السّماء وليست من تصرّفات الخلائق؛ إنّها زمجرةٌ ربّانية عاتية تكمن وراء مسلسل السّخرية بالله وبدين الله، الفيّاض بالهزء من المتديّنين من عباد الله، إنّه المسلسل الذي أبى المسؤول عنه إلّا أن يبالغ في سخريته بالله وبدينه، فيقتطع من كلام الله في قرآنه عنوانًا عليه، ويسميه ساخرًا ‟وما ملكت أيمانكم”

وترافق عرض هذا المسلسل مع إجراءات عمليّة غدت تقضّ مضجع الجماعات الدّعويّة في سورية على أرض الواقع، حيث تمّ منع النّقاب في المدارس وشُنّت حملات اعتقال طالت عددًا من الشّخصيّات الدّعويّة والعلميّة الشّرعيّة والأساتذة في كليّة الشّريعة.

ما دلالة كلّ هذا؟!

من الواضح أنَّ النظام كان يهدفُ من خلال هذه العروض الدراميّة إلى هدفين رئيسين:

أولًا: تشويه صورة القُبيسيّات بوصفهنّ جماعة تحوّلت إلى ظاهرة متمدّدة تقلق النّظام من حيث رسم هويّةٍ مجتمعيّةٍ لا يريدها ولا يرتضيها وإن لم تكن تشكّل خطرًا يتهدّده، فعمد إلى التّركيز عليهنّ لعزلهنّ عن المحيط الاجتماعيّ.

ثانيًا: ضرب ظاهرة التديّن في المجتمع كونها ظاهرة تقلقه وتتناقضُ مع مبادئه ويراها تصبّ في خانة التّهديد الأمني عبر استهداف القُبيسيّات، فهنّ كنّ عنوانًا للنّيل من التّديّن عمومًا حتّى غدت توصف أيّ متديّنة بأنّها قبيسيّة حتّى لو لم تكن من الجماعة، كما أنّ استهداف تديّن القبيسيّات كان يهدفُ إلى شيطنة صورة المتديّن في المجتمع امرأةً كانت أم رجلًا.

ولكن ماذا كان الحال بين القُبيسيّات والنّظام عقب اندلاع الثّورة؟

في آذار عام 2011م اندلعت شرارة الثّورة السّوريّة، فلم يكن النّظام السّوري هو المتفاجئ الوحيد باشتعالِها بل شاركه ذلك كلّ الجماعات الدّينيّة التي وجدت نفسها أمام مشهد لا مناص لها من التّعامل معه.

الإرباك سيّد المشهد والصّمت سيّد الموقف

عموم الجماعات الدّعويّة ومنها القُبيسيّات لا سيما الدّمشقيّة منها وجدت نفسَها في موقف محرج، فهي محاصرةٌ بينَ نيران عدّة؛ نارِ النّظام الذي واجه الثّورة الشّعبيّة بقمع غير مسبوق ولن يقبل من هذه الجماعات إلّا الانحياز الكامل لخياره وقراره، ونارِ المبادئ التي طالما قدّمتها هذه الجماعات لأتباعها من إعلاء شأن كلمة الحقّ في وجه السّلطان الجائر، ونارِ الأتباع الذين يضغطون على قياداتهم الدّعويّة لأجل الحصول على موقف.

لم تكن القُبيسيّات عبرَ تاريخهنّ الطويل في موقفٍ أشدّ إرباكًا من موقفهنّ في أوّل سنوات الثّورة، وحاولنَ تجاوزَ الإرباك عبر التّعميم على حلقات الجماعة بضرورة عدم التّدخّل في السّياسة والإكثار من الأوراد والأدعية لكشف الغمّة ورفع البلاء.

اتّخذت القُبيسيّات في بداية الثّورة قرارًا واضحًا بالصّمت وعدم إعلان أيّ موقف، سواء في تأييد الثّورة أو النّظام، وهذا ينسجم عمومًا مع نهج الجماعة العام، ولكنّ هذا الصّمت لن يكون مقبولًا من النّظام والأتباع على حدٍّ سواء لا سيما مع امتداد الثّورة إلى الرّيف الدّمشقيّ بغوطتيه الشّرقيّة والغربيّة والتي تشكّل حاضنةً لأعداد كبيرة من طالبات الجماعة، ولتمتدّ المظاهرات عقب ذلك إلى عددٍ من الأحياء الدّمشقيّة مثل المزّة والميدان وكفر سوسة وأحياء دمشق الجنوبيّة.

الصّمت الرّسميّ يولّد المواقف الفرديّة

صمتُ الجماعة الرّسميّ تجاه الثّورة التي تزداد اشتعالًا وتتمدّد بسرعة كان سببًا رئيسًا في انقسام الأتباع من آنساتٍ مشرفاتٍ وطالبات إلى أقسام ثلاثة كما هو الحال في عموم الجماعات الدّعويّة التي اتّخذت موقف الصّمت نفسه.

القسم الأوّل: انخرط في العمل الثّوري بأشكاله المختلفة من المشاركة في المظاهرات والإغاثة أو العمل الإعلامي.

وهذا القسم رأى صمت آنسات الجماعة نوعًا من الخذلان والانحياز الصّامت للنّظام، كما نظرت هؤلاء الطّالبات حولهنّ فوجدن بعض الأصوات الدّعويّة النّسائيّة قد ارتفعت في دعم صريح للثّورة، وكانت أكثر الشّخصيّات تأثيرًا في هذا القسم هي الدّكتورة حنان اللّحّام التي كانت تمثّل توجّهًا دعويًّا خاصًّا قريبًا من توجّهات أستاذها جودت سعيد، حيث رأتها الطّالبات تتقدّم الصّفوف في مظاهرات داريّا في وقتٍ مبكّرٍ وتقف خطيبةً في جموع المتظاهرين بلا خوفٍ ولا وجل؛ فكان هذا المشهد ذا أثرٍ كبيرٍ في نفوس العديدِ من القُبيسيّات اللّواتي كنّ ينتظرنَ قدوةً تتقدّم الصّفوف.

القسم الثّاني: اتّخذ موقف الصّمت والحياد وكان يلتزم سياسة الجماعة، وهذا هو القسم الأكبر.

القسم الثّالث: أعلن تأييده الصّريح للنّظام وانحيازَه له مستدلًّا بموقف الدّكتور محمّد سعيد رمضان البوطي الذي انحاز للنّظام من بداية الثّورة، فهو عندهنَّ العالم الذي كشفَ الله عن بصيرته فتوقّع البلاء والغضب الإلهيّ قبل حدوثه فكان من الواجب التزام موقفه لتجاوز هذه النّقمة الإلهيّة.

وهنا لا بدّ من التّأكيد على أنّ الموقف الرّسميّ للجماعة في هذه السّنوات كان الحياد والصّمت؛ فلا المنخرطات في الثّورة ولا المؤيّدات للنّظام يمثّلن الموقف الرّسميّ للجماعة في هذه السّنوات.

اللّقاء الأوّل مع بشّار الأسد

في الشّهر الأخير من عام 2012م ظهر بشّار الأسد محاطًا بالعشرات من الدّاعيات السّوريّات، وثارت ثائرة المجتمع الثّوري على القُبيسيّات حينها، وتمّ اعتبار هذا اللّقاء موقفًا رسميًّا من القُبيسيّات في الانحياز للنّظام والوقوف ضدّ الثّورة.

وهنا لا بدّ من ذكرِ أمرين مهمّين لفهم دلالات هذا اللّقاء وترتيب الأحكام عليه:

الأوّل: اللّقاء لم يكن خاصًّا بالقُبيسيّات بل ضمّ عموم الدّاعيات من مختلف المدارس الدّعوية، وكان العدد الأقلّ في الحاضرات هنّ القُبيسيّات؛ فقد ضمّ اللّقاء داعيات من جماعة كفتارو ومن معهد الفتح ومن معهد الشّام ومدرّسات في كليّة الشّريعة، ولكنّ الماكينة الإعلاميّة للنّظام نجحت في وصم كلّ النّساء المشتغلات بالدّعوة بوصف القُبيسيّات.

الثّاني: من خلال تتبّع ظروف اللّقاء فإنَّ عموم الحاضرات أكّدنَ أنّهن لم يكنّ على علم مطلقًا بأنَّ اللّقاء هو مع بشّار الأسد، وأنّهن دعين لاجتماع مع وزير الأوقاف للحديث عن ترتيبات إداريّة للعمل الدّعوي المسجديّ، وبعد وصولهنّ مكان الاجتماع أحاط بهنّ أفراد الأمن وأخذوا هويّاتهنّ وأحضروا باصاتٍ وتمّ نقلهنّ إلى قاعة أحد الفنادق في دمشق ليتفاجأن بدخول بشّار الأسد عليهنّ.

شخصيًّا أقتنع بهذه الرّواية لمروري بتجربة مشابهةٍ عام 2011م بعد اندلاع الثّورة بأشهر يسيرة إذ اتّصل بي أحد مدراء الأوقاف وكنت في دمشق حينها يطلب مني الحضور لاجتماع مع وزير الأوقاف للحديث في شؤون متعلّقة بالعمل الدّعوي، واعتذرت حينها فعاود الاتّصال بي أكثر من عشر مرّات يؤكّد لي بأنّ الوزير يريد أن يتعرّف إليّ مباشرة وأنّه مصرّ على حضوري الاجتماع، فبقيت مصرًّا على الاعتذار، ولتعرض نشرات الأخبار مساء ذلك اليوم لقاء لبشّار الأسد مع مجموعةٍ من العلماء والدّعاة؛ فسألت بعض الحاضرين فذكروا لي رواية تطابق ما ذكرته الدّاعيات والقبيسيّات عن لقائهنّ الأوّل مع بشّار الأسد.

وهذا التّفصيل ومعرفة الظّروف المحيطة باللّقاء يفيدُ في الحكم على القُبيسيّات بأنّ هذا اللّقاء وحده لا يصلح دليلًا لاعتباره موقفًا صريحًا مؤيّدًا أو داعمًا لبشّار الأسد، وهو لا يعدّ حتّى اللّحظة انقلابًا في الموقف المعتمد من الجماعة باتّخاذ الصّمت موقفًا.

اغتيالات واعتقالات

في عام 2013م كانت الآنسة فاطمة الخبّاز المنحدرة من مدينة عربين من الغوطة الشّرقيّة والتي تعدّ من أكثر الآنسات الكبيرات قربًا من الآنسة منيرة قبيسي تمرّ على حاجزٍ أمنيّ في منطقة المزّة، وبعد أن تحقّق الحاجز من هويّتها سمح لها بالمرور بسيّارتها وما أن انطلقت حتّى عاجلها الحاجز بإطلاق الرّصاص في عمليّة اغتيال أقرب إلى الإعدام الميدانيّ.

كانت هذه رسالةً واضحةً للجماعة بأنَّ النّظام لن يتهاون مع أيّ سلوكٍ يخالف توجّهاته أو يظهر التّعاطف مع الثّورة، فكان الانتقام من آنسة وداعية كبيرةٍ مسنّةٍ فقط

لأنّها ساهمت بإغاثة أهلها المهجّرين بفعل إجرام النّظام.

كما أنّها رسالةٌ بعدم رضى النّظام عن التزام الشّريحة الكبرى من الجماعة الصّمت وعدم تبرّئها العلنيّ من القُبيسيّات اللّواتي انخرطن في أعمال ثوريّة فاعتقلن أو قُتلن.

والجدير بالذّكر أنَّ العشرات من القُبيسيّات تمّ اعتقالهنّ وأشهرهنّ على الإطلاق عالمة الفيزياء النّوويّة السّوريّة الدّكتورة فاتن رجب التي تنتمي للقبيسيّات والتي اعتقلت في نهاية عام 2011م بتهمة الإرهاب، وهي من أبرز ناشطات الثّورة في مدينة دوما، وكان لاعتقالِها أثر كبير على سمعة النّظام.

ولكن؛ هل حدث انقلابٌ في موقف الجماعة بعدَ ذلك؟ وماذا عن اللّقاءات التاليّة لبشار الأسد مع القُبيسيّات؟ وهل كانت بترتيب معهنّ وعلم مسبقٍ منهنّ؟ ومن هي سلمى عيّاش وما دورها في موقف القُبيسيّات من النّظام؟ ومن هي خلود السّروجي وما علاقتها بالقُبيسيّات؟ عام 2014م بدأ انحدار الخطّ البيانيّ للثّورة السّوريّة الذي بلغ ذروته لصالح الثّورة عام 2013م، ومع تحوّل الحال تغيّرت العديد من مواقف النّظام التّفصيليّة ومنها منهجيّته في التّعامل مع القبُيسيّات.

اللّقاء الثّاني مع بشّار الأسد

في الشّهر الأوّل من عام 2014م استقبل بشّار الأسد مجدّدًا وفدًا من داعيات دمشق من مختلف المدارس والتّوجّهات، ولكنّ اللّقاء هذه المرّة كان مختلفًا عن اللّقاء الأوّل الذي حدث عام 2012م وتفاجأت الدّاعيات فيه بلقاء بشّار الأسد.

فالعديد من المؤشّرات تدلّ على أنَّ الآنسات كنّ على علم باللّقاء قبل بضعة أيّام من حدوثه؛ إذ تواصلت بعض الآنسات القبيسيّات مع طالباتهنّ اللّواتي لهنّ إخوة أو آباء قيد الاعتقال في سجون بشّار الأسد وطلبن منهنّ بيانات هؤلاء المعتقلين دون ذكر سبب الطّلب وبعد حدوث اللّقاء أخبرن طالباتهنّ بأنّهنّ قدّمن الأسماء للرّئيس بيده مباشرة.

طبعًا كلّنا يعلم بأنَّ المعتقلين في سوريا لا يخرجون من أقبية الفروع الأمنيّة بورقة توضع في يد بشّار الأسد؛ ولكنّ هذه الحركة من الآنسات كانت حركة استباقيّة لأيّ استنكار من طالباتهنّ اللاّئي تأذّينَ من النّظام بصورة تُظهر لقاءهنّ ببشّار الأسد بأنّه من أجل مصلحة الدّعوة والطّالبات وأهليهنّ.

ذهاب القُبيسيّات راغباتٍ إلى هذا اللّقاء وعلمهنّ به قبل أيّام من حدوثه لا يمكن أن يكون مواقف فرديّة لمن يعرف مدى الانضباط العالي والتمسّك بالاستشارة والاستئذان في القضايا الشّخصيّة فكيف بهكذا قضيّة تتعلّق بالجماعة كلّها؟!

من الواضح أنَّ الجماعة اتّخذت قرارًا بالانحياز الهادئ للنّظام قائمٍ على مواقف غير فجّة وتجنّب المبالغة في التصريحات التي يفعلها البوطي وأحمد حسّون.

الحاضرات في هذا اللقاء من القبيسيّات كنّ كما في سابقه الأقلّ عددًا رغم أنَّ عموم الكتّاب والنشطاء وصمُوا جميع الحاضرات بأنّهنّ من القبيسيّات لكنّ الأهمّ هو أنَّ الحضور هذه المرّة كان بقرارٍ من الجماعة يحمل موقفًا صريحًا بالانحياز الضّمني للنّظام بخلاف دلالات حضور اللّقاء الأوّل مع بشّار الأسد.

كلمةٌ مفصليّةٌ من سلمى عيّاش

سلمى عيّاش طبيبةٌ من مدينة طرطوس السّاحليّة وهي من آنسات القبيسيّات الكبيرات، وهي في الوقت نفسه أخت زوجة وزير الأوقاف في النّظام السّوري محمّد عبد السّتّار السيّد.

ففي الشّهر الثّاني من عام 2014م عقدت وزارة الأوقاف مؤتمرها الخامس عشر تحت عنوان "فقه الأزمة"

وألقت الآنسة سلمى عيّاش كلمة "الدّعوة النّسائيّة" المراد بها القُبيسيّات بين يدي وزير الأوقاف والمفتي وعموم علماء سورية، وكان ممّا قالته في كلمتها:

"كانت توجيهات السيّد الرّئيس بشّار الأسد من البداية أن يتمّ نقل العمل النسائي من البيوت حيثُ الظّلام والضّبابيّة إلى المساجد حيثُ النّور وحيثُ الضّبط"

أن تصدرَ هذه العبارة من آنسةٍ قبيسيّة كبيرة فهو إعلان مفصليّ بالنّدم على أساس المنهج الذي قامت عليه الجماعة وهو الدّعوة المنزليّة.

وكانت هذه العبارة صدمةً كبيرةً في صفوف الطّالبات اللّواتي بدأن مرحلة المفاصلة بينهنّ وبين الجماعة من حينها.

وعند اعتراض بعض الطّالبات كان الخطاب واضحًا من عموم الآنسات المشرفات بأنّنا لن نفرّط في المكاسب التي حصّلتها الجماعة وأنّنا بهذا نحافظ على الدّعوة؛ وهي الحجّة ذاتها التي برّرت بها عموم الجماعات الدّعويّة المنحازة لبشّار الأسد موقفها.

سلمى عيّاش معاونُ الوزير

في آذار "مارس" من عام 2014م أصدر بشّار الأسد مرسومًا بتعيين سلمى عيّاش بمنصب معاون وزير الأوقاف، وهذه المرّة الأولى في تاريخ سوريا التي تحظى فيه امرأة بمنصب معاون وزير الأوقاف.

هذا التّعيين اللّافت يحمل في طيّاته معاني هامّة وأهداف أبعدَ من مجرّد إظهار النّظام بوصفه مناصرًا للمرأة مكرّمًا لها.

إنّ تعيين الآنسة القُبيسيّة سلمى عيّاش معاونًا لزوج أختها وزير الأوقاف يعبّر عن تغيّر سياسة النّظام تجاه الجماعة بعد أن كانت سياسته هي شيطنتها، وأنَّ قراره الجديد هو احتواء القُبيسيّات ووضعهنّ تحت جناحه حتى تكون الجماعة صوتًا إضافيًّا من أصوات الدّعوة الإسلاميّة المؤيّدة له والمنافحة عنه.

إنّ تعيين سلمى عيّاش معاونًا لوزير الأوقاف يمكن اعتباره النّقطة المفصليّة في تحوّل مواقف الجماعة من الصّمت إلى الموقف المؤيّد للنّظام بل إلى الدّخول في بنية النّظام، وهذا هو أجلى موقف جعل الكثير من الطّالبات يقعن في حيصَ بيص جرّاء هذا التّحوّل من أقصى الصّمت إلى أقصى الالتحام ببنية النّظام في أكثر مؤسساته حساسيّة وهي المؤسّسة الدينيّة الرّسميّة.

خلود السّروجي المُتمايلة في الأمويّ

عملَ النّظام على حشد الرّاي العام لمساندته من خلال تصدير صورة إعلاميّة تفيد بأنَّ القبيسيّات منحازاتٍ بشكلٍ مطلق للنّظام.

وكانت من أكثر الصّور التي استفزّت جمهور الثّورة صورة داعية تقف في قلب الجامع الأموي تلبس الحجاب الأزرق الذي تختصّ به القبيسيّات وتتمايلُ على أنغام أنشودة وهي تنشد وتدعو لبشّار الأسد.

هذا المشهد تسبّب بهجوم كبير من جمهور الثّورة على القُبيسيّات بناء على الحكم على صورة هذه الدّاعية وارتدائها الحجاب الذي يمثّل دلالةً على الهويّة القبيسيّة.

هذه الدّاعية اسمها خلود خادم السّروجي وهي تشغل منصب المستشارة الإعلاميّة لوزارة الأوقاف في النّظام السّوري ومسؤولة الدّعوة والإرشاد في الوزارة.

وهي زوجة أحد ضبّاط الأمن وبناء على هذا نالت هذه المناصب، وخلود السروجي هذه لم تكن في يومٍ من الأيّام من القبيسيّات ولم تجلس معهنّ في حلقةٍ أبدًا.

وفوق هذا فإنّها ترتدي عادةً الحجاب الأسود الذي لا ترتديه القبيسيّات وترتديه بطريقة مخالفة لطريقتهنّ، ومع ذلك حرصت على الظّهور الإعلاميّ بمظهر لا يمكن أن يُفهم منه إلّا أنّها من

القبيسيّات اللّواتي لهنّ مكانة ورتبة في الجماعة من خلال لون الحجاب وطريقة ربطه وشكل المانطو.

وهذا فيه دلالة واضحة على أنَّ الظّهور بهذا الشّكل والطّريقة والهيئة كان مُرادًا لذاته وأنّه ليس سلوكًا ذاتيًّا من خلود السّروجي بل بتوجيه من دوائر القرار الأمني والرسمي في الأوقاف.

هو جزء من ترسيخ النّظام فكرة أنّ القبيسيّات جزء منه من أجل تعزيز موقفه.

هو قرارُ من؟

اعتاد بشّار الأسد أن يعقد لقاءً مع الدّاعيّات بشكلٍ دوريّ، وهو ما لم يكن قبل الثّورة، والحاضر الأبرز هو الآنسة القبيسيّة سلمى عيّاش التي تأخذ موضعها إلى جانب الأسد بينما يتموضع زوج أختها وزير الأوقاف في الجانب الآخر منه.

بهذا يمكن القول بأنّ القبيسيّات عقب عام 2014م على المستوى الرّسميّ في الجماعة اتّخذن قرارًا واضحًا بالانحياز إلى بشّار الأسد بعد أن فقدنَ القدرة على الصّمت.

وهنا لا بدّ من التّأكيد على أنَّ هذا القرار ليسَ بالضّرورة أن يكون بموافقة الآنسة الكبرى منيرة قبيسي فهي تعاني من مرض شديد وقد نأت بنفسها تمامًا عما يجري في سوريا من بدايته إلى اليوم وهي حبيسة المرض في منزلها في حيّ الرّوضة الدّمشقي وفي الغالب أنّ هذا القرار هو من مجلس الآنسات الكبيرات بالترتيب مع وزير الأوقاف.

وبعد هذه المواقف السّياسيّة للقُبيسيّات من النّظام السّوري؛ ما هي مواقف الجماعات والتيّارات الدّينيّة من جماعة القُبيسيّات؟ في بيئة تزخر بالتّوجهات والتيارات والمدارس الدّعويّة لا بدّ من معرفة مواقف القبيسيّات من الآخرين ومواقفهم منهنّ لتكتمل الصّورة.

الموقف من جماعة كفتارو وجماعة زيد والإخوان المسلمين

لم يكن الموقف من الجماعات الأخرى في صميم اهتمامات الحلقات القبيسيّة، ويمكن القول بأنّ ثقافة عموم الطّالبات القبيسيّات بالجماعات والمدارس الأخرى هي ثقافة محدودة، وذلك لعدم حضور هذا في مناهجهنّ، ولغياب الحديث عن الآخرين في الحلقات.

غير أنّ استقراء السلوك العام للقبيسيّات يوصلنا إلى أنّ العلاقة مع عموم المدارس لم تكن على مسافة واحدة.

فهناك نفور كبير وتنفير ناعم للطالبات من جماعة كفتارو، والعلاقة بها والموقف منها سلبيّ رغم عدم التصريح بمهاجمتها، والنّصح لأيّة طالبة تستشير أنستها في شأن الدّراسة الشرعيّة يكون بعدم الالتحاق بالمعاهد والكليّات الشرعيّة التّابعة لجماعة كفتارو.

ومردّ هذا الموقف السّلبي من جماعة كفتارو يعود إلى سببين رئيسين:

الأوّل: موقف جماعة كفتارو مع الآنسة منيرة، وخروجها من الجماعة بعد خلاف شديد مع وفاء ابنة الشّيخ أحمد كفتارو.

الثّاني: هو أنّ جماعة كفتارو هي الجماعة الوحيدة من الجماعات الفاعلة في السّاحة السّوريّة التي لها جسم نسائيّ قائم بذاته وله امتداداته بخلاف عموم الجماعات والمدارس الدمشقيّة الأخرى.

أيّ أن هناك شعورًا بالتّنافس بين الجماعتين أدّى إلى هذه الحساسية البالغة، وعمومًا كان موقف جماعة كفتارو من القبيسيّات سلبيًّا هو الآخر.

أمّا الموقف من جماعة زيد التي أسّسها الشّيخ عبد الكريم الرّفاعي فكان إيجابيًّا متبادلًا بين الطّرفين، فالعديد من زوجات وبنات مشايخ جماعة زيد التحقن بحلقات القبيسيّات، كما كانت الآنسات القبيسيّات يرسلن الحافظات لنيل الإجازة القرآنيّة من الشّيخ أبو الحسن الكردي الذي هو من أعمدة جماعة زيد.

أمّا الإخوان المسلمين فإنّ صمتًا مطبقًا في الحلقات حيالهم، فمن هو الذي يجرؤ على ذكر اسم الإخوان المسلمين في ظلّ حكم الأسد الأب أو الابن؟!

وأمّا خارج سوريا فكان موقف الإخوان المسلمين من القبيسيّات بالغ الإيجابيّة فالكثير من نسائهم وبناتهم التحقن بحلقات القبيسيّات في كلّ من لبنان والأردن والسّعوديّة والكويت رغم وجود تنظيم نسائيّ في جماعة الإخوان المسلمين، إلّا أنّ هذا لم يكن له تأثير سلبي في الموقف من القبيسيّات.
كيف تعاملت السلفيّة مع القُبيسيّات؟

لا تمارس القبيسيّات هجومًا ممنهجًا تجاه السلفيّة، وإنّما يحضر ذكرها عادة عند حدوث مناسبة كزواج إحداهنّ إلى السّعوديّة فتكون بعض النّصائح للطالبة بأن لا تغيّر ولا تبدّل بناء على ما ستراه من تغيّرات هناك، أو عند قدوم إحداهنّ من هناك وهي محمّلة بأسئلة عديدة وتشويش بناء على تغيّر البيئة الدّعوية.

أمّا السّلفية في عمومهم وعلى اختلاف تيّاراتهم فنظرتهم إلى القبيسيّات بالغة السلبيّة وتنطلق من توصيفات عديدة تزخر بها العديد من المقالات والفتاوى التي تنتشر في المواقع الالكترونيّة التّابعة للتيّارات السّلفيّة المختلفة.

وأهم منطلقات الحكم السلبيّ على القبيسيّات قائمة على التّوصيفات الآتية:

أوّلًا: القبيسيّات جماعة صوفيّة تتبع الطّريقة النّقشبنديّة.

ثانيًا: القبيسيّات يقلن بالحلول ووحدة الوجود ويقدّسن الرّموز القائلين بذلك كالحلّاج

ثالثًا: القبيسيّات يقلن بوجوب زيارة دمشق لوجود الآنسة منيرة فيها وأنّ هذا أوجب وأعظم من زيارة الكعبة

رابعًا: القُبيسيّات فرقةٌ باطنيّة تتستّر بالعمل الخيري والإغاثي.

وهذه المنطلقات الأربعة في الحكم على القبيسيّات غير صحيحة مطلقًا، وقد أوضحنا في مقالات سابقة من هذه السلسلة أنّهنّ لسن نقشبنديّات، كما أنّهنّ لا يقلن بالحلول ولا وحدة الوجود، ووصفهنّ

بأنّهنّ فرقة باطنية هو وصف باطل يقوم على تخيّل غير صحيح، وكذلك لا تقول القبيسيّات على الإطلاق بأنّ زيارة الآنسة أوجب من زيارة الكعبة.

ولأنّ الحكم على الشّيء فرع عن تصّوره؛ فقد كان حكم السلفيّة على القبيسيّات غير صحيح في عمومه، فعندما يكون التّصوّر غير صحيح يكون الحكم باطلًا.

والمشكلة أنّه تمّ استصدار الفتوى رقم (16011) من اللجنة الدّائمة للبحوث العلميّة والإفتاء في السّعوديّة بحقّ القبيسيّات بالاستناد إلى المعطيات الباطلة السابقة، وقامت المواقع السّلفيّة بالتّرويج للفتوى لتغدو مستندًا شرعيًّا في الحكم على الجماعة حكمًا استندَ إلى معلومات وتوصيفات باطلة من الأساس.

وقد جاء في نص هذه الفتوى:

"فالواجب الحذر من الصّوفية رجالًا ونساءً ومن تولّيهم التّدريس والتّربية ودخولهم في الجمعيات النسائيّة وغيرها لئلا يفسدوا عقائد المسلمين.

والواجب على الرّجل منع موليته من الدّخول في تلك الجمعيات أو المدارس التي يتولّاها الصّوفية أو يدرسون فيها حفاظًا على عقائدهن وحفاظًا على الأسر من التفكّك وإفساد الزّوجات على أزواجهن ومن اعتنق مذهب الصّوفية فقد فارق مذهب أهل السّنة والجماعة"

"والمرأة التي تأثّرت بالتّصوّف إلى حدّ الاعتقاد المذكور لا ينبغي التزوّج بها ابتداءً ولا إمساكها ممن تزوّجها إلّا بعد مناصحتها وتوبتها إلى الله، والذي ننصح به النّسوة المذكورات هو التّوبة إلى الله والرّجوع إلى الحقّ وترك هذا المذهب الباطل والحذر من دعاة السّوء والتّمسك بمذهب أهل السّنة والجماعة، وقراءة الكتب النافعة التي قام بإعدادها العلماء المستقيمون على العقيدة الصحيحة والاستماع للدروس والمحاضرات، والبرامج المفيدة التي يقوم بإعدادها العلماء المستقيمون على المنهج الصحيح، كما ننصح لهن بطاعة أزواجهن وأولياء أمورهن في المعروف، والله الموفق".

وماذا عن موقف الأحباش من القُبيسيّات؟

الشّيخ أسامة السيّد أحد مشايخ فرقة الأحباش التي تنمو وتترعرع في لبنان كتب كتابًا بعنوان "دراسة شاملة عن التنظيم النسائي السّري الخطير لمنيرة قبيسي وأميرة جبريل وسحر الحلبي وفاديا الطّبّاع وسعاد ميبر" يقع في 123صفحة؛ وهو الكتاب الوحيد الذي كُتبَ بهذا التّفصيل والحجم في الرّدّ على القبيسيّات ومهاجمتهنّ.

والكتاب في مجمله ردود على الكتاب المعتمد لمادة العقيدة في حلقات القبيسيات وهو كتاب الآنسة سعاد ميبر "عقيدة التّوحيد في الكتاب والسّنّة"

وعلى النّقيض من السلفيّة الذين حكموا على القبيسيّات بأنّهنّ مغرقات في التصوّف؛ فقد عمل الشّيخ أسامة السيّد جاهدًا لإثبات أنّ القبيسيات جزء من "السّلفيّة الوهابيّة القائلين بالتّجسيم في صفات الله تعالى"

ويخلص الأحباش إلى النّتيجة ذاتها التي خلص إليها أعداؤهم السّلفيّة من القبيسيّات فيقول السيّد في كتابه: "يجب على من علم بأحوال ومعتقدات هذه الفرقة الشّاذّة المنحرفة من النّساء عقائديًّا وفقهيًّا

وسلوكيًّا أن يحذّر منهنّ خوفًا على دين المسلمين ودين أبنائهم"

ويقول: "القبيسيّات وفروعهنّ في الدّول حالة مشبوهة يعشن في غموض وتنظيم سرّي"

وهذا الموقف من جماعة الأحباش وإن كان لبس ثوبَ الرّدّ العلمي غير أنّني أعتقد أنّه موقف سياسيّ مغلّف بالرّدّ الشّرعي؛ فإذا نظرنا إلى السّنة التي أصدر فيها الأحباش كتابهم هذا سنجدها سنة 2003م، أي في الوقت الذي بدأ فيه النّظام حملته الإعلاميّة من خلال الأعمال الدّراميّة على القُبيسيّات.

ومن المعلوم بأنّ الأحباش والمؤسّسات التّابعة لهم تحت لافتة "جمعية المشاريع الخيريّة الإسلاميّة" لا سيما في تلكم الفترة كانوا يتحرّكون في لبنان بأوامر أجهزة المخابرات التّابعة للنّظام السّوري، فصدور الكتاب من هذه الجهة متزامنًا مع حملة النّظام السّوريّ لشيطنة القُبيسيّات يدلّ على الارتباط بينهما. في نهاية كلّ مطاف لا بدّ من كلمات جامعة، وللحديث عن القبيسيّات كلماتُه الختاميّة عقب التّفصيل في أحوال الجماعة من حيث نشأتها وفكرها ومنهجها ومواقفها ومواقف الآخرين منها.

لا تغفلوا عن السّياق والنّسق العام

القُبيسيّات جزء من المؤسّسة الدّينيّة الشّاميّة التّقليديّة، وعلى من يريد الحكم المنصف ألّا ينزعها من سياقها العام فهي نشأت وتطورت على خطى متقاربة مع بقيّة المدارس الدّعويّة القائمة في دمشق.

كما أنّها لم تخرج في كثيرٍ من مواقفها عن المواقف العامّة لتلكم المدارس؛ سواء في ذلكم المواقف السياسيّة أو المواقف الفكريّة العامّة.

غير أنّ ما تميّزت به هذه الجماعة هو أنّها كيانٌ نسائيّ نشأ في بيئة وظروف سياسيّة واجتماعيّة لا تقيم وزنًا كبيرًا للمرأة ولا تنظر إليها إلّا بوصفها كائنًا تابعًا للرّجل يتبعه كظلّه ويعيشُ في جلبابه.

فكان نشوء هذه الجماعة واستمرارها وامتدادها عنوان ثورة فكريّة على واقع اجتماعي وفكريّ سائد وخروج غريب عن نسق فكريّ دينيّ فلذا كانت جماعة لافتة ومثيرة للانتباه، وموضع جدل حينًا وتهويشٍ حينًا واتّهامٍ أحيانًا أخرى.

حفاظٌ على الهويّة

من المنصف أن نقول بأنّ المدرسة الدّعوية التقليديّة برغم كلّ ما يثار حولها من انتقادات في الفكر والموقف وكلّ ما فيها من سلبيّات في الأداء والممارسة؛ إلّا أنّها ساهمت في الحفاظ على الهويّة الدينيّة العامّة للمجتمع في سنوات قاسية كالحة.

والقبيسيّات نشأن في ظروف استثنائيّة وكان لهنّ دور كبيرٌ في إحياء مظهر التدين النسائيّ العام ونشره وتعزيزه.

ففي الستينيات حين نشأت القُبيسيّات استهدف حزب البعث عموم مظاهر التديّن ومن أهمّها وأبرزها الحجاب واللباس مستعينًا بالمدّ القوميّ والعلوّ الشيوعيّ وانحسار دور الإسلاميين فحارب الحجاب

ودعا إلى السّفور وعزّز ربط الحجاب بالتّخلّف والانحطاط في خطابه الإعلاميّ، وكانت التّنورة القصيرة "الميني جوب" هي الموضة الرّسمية التي يعزّز النّظام البعثي انتشارها ويربطها إعلاميًّا مع الانفتاح والتحضّر.

وفي الثّمانينيات حارب نظام حافظ الأسد الحجاب ولباس المرأة حربًا لا هوادة فيها تحت ستار الحرب على الإخوان المسلمين، ولوحقت المحجّبات ونُزع الحجاب عن رؤوس النّساء في شوارع دمشق بعنف وشراسة ومنع الحجاب في المدارس الثّانويّة والإعداديّة في كلّ أنحاء سوريا.

فيحسبُ للقبيسيّات حضورهنّ في هذا الواقع الصّعب حين غاب الكثيرون وتقدُّمهن حين لاذَ المتنوّرون بالصّمت؛ فكان لهنّ الدّور الكبير في تعزيز التّمسّك بالحجاب وتقوية انتشاره في تلك البيئات وإعلاء شأنه، ممّا كان له أثرٌ كبيرٌ في الحفاظ على مظهر التديّن النسائيّ العامّ في المجتمع رغم الضّربات القاسية التي لا هوادة فيها.

وهذا لا ينفي السلبيّات والانتقادات الموجّهة لهذه الجماعة في فكرها ومواقفها، وكذلك فإنّ تلكم الانتقادات ينبغي ألّا تنسف ما قدّمته هذه الجماعة من خدمات للدّعوة والهويّة الإسلاميّة، ولكنّه الإنصاف؛ إنّ الإنصاف عزيز.

رباطٌ نفسيّ وثيق

من خلال متابعة العلاقة بين أفراد القبيسيّات من آنسات وطالبات وجماعتهنّ فإنّ الملاحظ بأنَّ العلاقة أعمق من مجرّد انتماء لجماعة فكريّة ودعويّة، بل هو الشّعور بالانتماء إلى العائلة الكبيرة.

وقد نجحت القُبيسيّات في خلق وشائج عميقة بين الطّالبات والجماعة من خلال تجسيد جوّ أسريّ بين الطالبة وجماعتها، وبين الطالبة وآنستها.

وهذه العلاقة ظاهرة بيّنة مستمرّة ممتدّة حتّى عند اللواتي أعلنّ انشقاقهنّ عن الجماعة أو خروجهنّ منها.

فعموم اللّواتي خرجن من الجماعة إنّما كان خروجهنّ لأحد أمرين:

أولًا: رفضًا لمواقفها السياسيّة من نظام الأسد والشّعور بخذلان الثّورة ومناقضة التّعاليم التي طالما تربّين عليها.

ثانيًا: ردّة فعل على سلوكيّات بعض الآنسات وتعاملهنّ القاسي أو تمييزهنّ في المعاملة.

ونادرًا ما تجد من تركت القُبيسيّات رفضًا لفكره الجماعة ومنهجها الدّعوي.

وعموم هؤلاء اللّواتي تركن الجماعة أو خرجن منها ما زلنَ يحملن في قلوبهن الكثير من الامتنان للجماعة وللآنسات، وتعبيراتهنّ تنقل شعورهنّ بالامتنان للجماعة ولا يتوقفن عن التقديم بين يدي أيّ انتقاد أن يذكّرن بفضل الجماعة عليهنّ وأنّهن رغم خروجهنّ أو مخالفتهنّ للجماعة لا يمكن أن ينكرن أو ينسين ما للجماعة عليهنّ من فضل.

ملحوظات على عموم ما كُتب عن القُبيسيّات

قبل الشّروع في الكتابة عن القُبيسيّات جمعتُ عموم ما كُتب عنهنّ من كتب ومقالات ودراسات، فكان يزيد عن تسعمئة صفحة وقرأتُه بتأنٍّ بالغ، فوجدت أنّ الغالبيّة العظمى من هذا المكتوب يتّسم بسمات عدّة:

الأولى: غالب ما كُتبَ يناقشُ المواقف السّياسيّة للقبيسيّات من الثّورة السّوريّة، ويتحدّث عن الجماعة في مرحلة ما بعد حكم بشّار الأسد وما بعد اندلاع ثورة 2011م بتفصيل بالغ مع إجمالٍ مُخلّ عند الحديث عن الفكر والمنهج الدّعوي، مع إغفال لمراحل تطوّر الجماعة في الستينيات وما بعدها في عهد حافظ الأسد.

الثّانية: انطلقت الكتابة عند الغالبيّة العظمى ممن كتب عن القبيسيّات من تحيّزات وأحكام مسبقة يُراد إثباتُها، فمن يحمل قناعة مسبقة حول الجماعة كتب وهو يتبنّى هذه القناعة فجاءت كتابته محاولةً للتدليل على القناعة المسبقة وإثباتِها، وهذا يخالف المنهج العلميّ والبحثي القائم على التّجرّد عن القناعات المسبقة قبل البحث والتّصنيف، وهذا أول خطوات الإنصاف والعدل في القول.

الثّالثة: اللّغة الاتّهاميّة، فالكثير ممّا كتب عن القبيسيّات يتّسم بلغة اتّهاميّة كالاتهام بالماسونيّة أو العمالة للمخابرات أو أنّها جماعة من صنيعة النّظام أو الإغراق في الاتّهامات الأخلاقيّة وغير ذلك من الاتّهامات التي لا تصحّ في الإطلاق على عموم الجماعة، وإن صحّت على بعض الأفراد في أيّة جماعة من الجماعات فإنّه لا يجوز تعميمها، وتفقد هذه اللغة مصداقيتها العلميّة والبحثيّة، رغم أنّنا لا نستطيع إنكار شعبويّتها وتلقّف الجماهير لها وتأثيرها في الوعي العام.

ما مصادرك؟!

كثيرًا ما توجّه إليّ سؤال عن مصادري التي اعتمدتها في هذه السلسلة، وهذا سؤال حقّ وواجب على كلّ من يتحرّى الحقّ ويسعى للوصول إليه.

وممّا يجب تبيانُه في هذا المقام أنّني درستُ في دمشق وتنقّلت بين علمائها ودعاتِها ومعرفتي بمدارسها الدّعويّة ليست معرفة القارئ عنها بل معرفة المعايش لها عن كثب.

وبعد أن عزمت على كتابة هذه السلسلة قرأت ما كُتب عنها من أبحاث ومقالات من الاتجاهات المختلفة وتعاملت معها بمنطق التمحيص والتّثبّت والنّقد العلمي.

ولكنّ أهمّ مصادري كانت الشّهادات الحيّة من خلال تواصل مباشر مع أكثر من عشرين من الآنسات والمشرفات والطّالبات القبيسيّات ممّن خرجن من الجماعة وبعضهنّ ما زلن فيها، وقد كنت أعدّ لكلّ واحدة منهنّ مجموعة من الأسئلة وكان التّعامل مع الإجابات وفق رؤية نقديّة قائمة على التّحقّق والتّثبّت ومقاطعة الإجابات مع بعضها من جهة ومع ما هو مسطور في الأبحاث من جهة ثانية.

وقد تحرّيتُ في هذه السلسلة الإنصاف والبعد عن الانجرافات العاطفيّة سلبًا او إيجابًا في المكتوب أو الشّهادات المسموعة، ولا بدّ في الختام من التأكيد على أنّ جهدي هذا كأيّ جهدٍ بشريّ يبقى قاصرًا ومعرّضًا للزلل والنقص وقابلًا للنقد والمناقشة، والحمدلله في بدءٍ وفي ختمِ

"بذخ القبيسيات" يثير سخط موالي الأسد

أثار شريط مصور تم تداوله على شبكات التواصل الاجتماعي لمئات النساء من منتسبي ما يعرف جماعة "القبيسية" في "حفل ديني" بمدينة دمشق غضب الموالين على مواقع من "حالة البذخ" التي وصلت إليها منتسبات هذه الجماعة، في ظل انقطاع الدعم عن ذوي القتلى من الموالين؛ حيث إن العشرات من النساء تركن عملهن وانخرطن في "القبيسية".

وتعتبر القبيسيات "جماعة دينية إسلامية دعوية نخبوية نسوية" تعتمد هيكلية شبه تنظيمية غير مُعلنة، نواتها من طبقة أثرياء دمشق ونشاطها الحقيقي والجاد يستهدف هذه الطبقة، وقد شكلت هذه الجماعة (منيرة القبيسي) وبدأت الجماعة في دمشق، وانتشرت انتشارًا واسعًا خلال العقد الأخير من القرن الماضي والعقد الأول من القرن الحالي، ثم امتدت إلى دولٍ عربيةٍ وإسلامية وأوروبية.

وعلق أحد موالي النظام على صفحته عن جماعة القبيسية قائلاً: "بعد أن ضاق ذرعنا بسرقة أموال شهدائنا وأنا احمل في عنقي أمانة كل دم شهيد على امتداد سوريا حفر له والده قبره بيده لأن دولته لم تعطه حتى ثمن قبر. بالطبع بسبب حركة جديدة ظهرت بالشام باتت تسيطر على مال اللاهوت السوري" على حد وصفه.

من جهته، يقول الباحث في الشؤون الدينية (عبد المنصور) لأورينت نت، إن "موالي النظام يخشون من النمو المتزايد للجماعة، بعد أنباء عن دخولهم البرلمان السوري، حيث إن هذا الأمر سيؤدي بنظرهم بمطالبهم بالتزمت الإسلامي الذي سيؤلب نصف المجتمع السوري المتحرر، حيث يتهم كثير من الموالين بأن القبيسيات هي حركة إخوان مسلمين جديدة، ولكن باسم الأخوات المسلمات التي تحضن في طياتها حركة ناشئة تسمى حركة الشباب المسلم".

ويضيف بأن "أغلب الطبقة الموالية للنظام هم من الفئة المتحررة، التي لا تحبذ إدخال الدين في المجتمع والتي تميل إلى ذهاب النساء إلى المراقص أو حتى العمل الجنسي وبيوت الدعارة، من أجل كسب الأموال، في حين أن جماعة القبيسية تلزم النساء بالحجاب وحضور دروس دينية وتتمتع بالتمويل الجيد ورضا أجهزة الأمن وهذا ما يزيد من غضب الموالين".

ويشير (المنصور) إلى أن "سلطة ما يسمة (الآنسة) في الجماعة تتجاوز مريداتها إلى عائلاتهن، ففي النهاية علاقة (الآنسة) بالبنات تبدأ بعلاقة الآنسة بالأم التي تحترمها وتُجلّها لمكانتها الدينية، وكلّ هذه السلطة تعتمد على الثقة والاحترام والحبّ لرمز (الآنسة) حيث أن كثيراً من النساء يأتين من مناطق بعيدة تصل لمئات الكيلومترات من أجل حضور دروس عند الآنسة".

وتقوم الجماعة القبيسية بـ"حفلات دينية" تضم أناشيد وأدعية وابتهالات بشكل مستمر في المساجد والمراكز الدعوية في مدينة دمشق وتضم الحفلات مئات النساء من عدة محافظات سورية، وتكلف هذه الحفلات مبالغ مالية ضخمة، حيث تعتمد الجماعة على طبقة الأثرياء الارستقراطية وجمع تبرعات من عدد من الدول العربية.

من جهته، يقول الباحث في التاريخ الإسلامي (د.أحمد السليمان) لأورينت نت، إن "حجم الإنفاق على المراكز الدعوية والحفلات التي تقوم بها القبيسيات تدل على أنه هناك تمويل مباشر من قبل النظام للجماعة، حيث يعتبرها الواجهة الدينية للنساء التي تروج أفكاره ورواياته، خصوصاً بأنها أصبحت تسيطر على قسم كبير من النساء".

ويضيف، بأن عمل القبيسيات كان ينشط في كافة المحافظات السورية قبل اندلاع الثورة، ولكن مع بعد مرور أعوام من الثورة تقوقعت الجماعة في المناطق التي يسيطر عليها النظام، وهذا لا يشمل المناطق الساحلية التي ترفض هذه الطقوس بشكل كامل، ويعتبرون أن الجماعة القبيسية تسلب أموالهم وحقوق أبنائهم ولا يألون جهداً في تشويه صورتها.

ويشير (السليمان) إلى أن "هناك صراع قاد التيار الديني واللاديني في مناطق سيطرة النظام، وخصوصاً في مدينة دمشق التي تنشط فيها القبيسيات، حيث إن نقمة الموالين من الطائفة العلوية على القبيسيات تتزايد، بينما الحركة القبيسية باتت تتمتع بثراء أكبر ودعم أوفر من قبل شخصيات في النظام ورؤوس الأموال والتجار وعلماء الدين في مدينة دمشق".

يذكر أن جماعة القبيسيات تمتدّ في النسيج الاجتماعي السوريّ في مدينة دمشق على وجه الخصوص، فيما تنشط في بعض البلدان كالأردن ومدينة إسطنبول ولبنان، مما يؤهلها للاستمرار في عملها ودورها في حال تغير الواقع السياسي في سوريا كحركة تنشط فيها المرأة بشكل رئيسي.



https://jusoor.co/details/Al%20Qubaysiat%20Organization%20Its%20Emergence%20and%20Formation/400/ar

https://www.aljumhuriya.net/ar/content/%D8%B1%D8%AD%D9%84%D8%AA%D9%8A-%D9%85%D8%B9-%D8%A7%D9%84%D9%82%D8%A8%D9%8A%D8%B3%D9%8A%D8%A7%D8%AA

https://mubasher.aljazeera.net/author/%D9%85%D8%AD%D9%85%D8%AF-%D8%AE%D9%8A%D8%B1-%D9%85%D9%88%D8%B3%D9%89

https://orient-news.net/ar/news_show/150059/0/%D8%A8%D8%B0%D8%AE-%D8%A7%D9%84%D9%82%D8%A8%D9%8A%D8%B3%D9%8A%D8%A7%D8%AA-%D9%8A%D8%AB%D9%8A%D8%B1-%D8%B3%D8%AE%D8%B7-%D9%85%D9%88%D8%A7%D9%84%D9%8A-%D8%A7%D9%84%D8%A3%D8%B3%D8%AF